آه يا صغيرتي

قصص

الكتاب: آه يا صغيرتي

الكاتب: **پولات جان**

الطبعة الأولى: 2020

جميع الحقوق محفوظة

الترقيم الدولي: ISBN 978-9933-636-08-1

الناشر: **دار الزمان**
للطباعة والنشر والتوزيع
فايبر وواتس أب:
0049 176 76866381
موبايل: 0049 176 76866381
E-mail:zeman005@yahoo.con

الإخراج الداخلي: **دار الزمان**
لوحة الغلاف: **للفنان باسل ابراهيم (إيماروش)**
تصميم الغلاف: **م. جمال الأبطح**

لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه إلا بإذن خاص ومسبق من الناشر

Copy Right Dar Zaman Publishing
All Right Reserved. No Part of This Publication May be Reproducced Transmitted Without Premission in Writing From The Publisher

پولات جان

آه يا صغيرتي

قصص

إلى الطفلة التي ستبقى صغيرة، دلنيا،

ليتحقق حلمها الجميل

سوف تنتصرين

تنتصرين

رغم الإنهزامات المتكررة

و الجروح.

أعرفُ

بأن رِقّة إنسانيتكِ لا تليق بحمل السلاح

و قتل البشر.

فأنتِ لم تُخلقيّ لذلك

كما الشر لم يخلق لينتصر...!

ستنتصرين

لا بالسلاح و لا بالخنجر

و لا دماءٌ تُهدر...

يكفيكِ وردة و طرفة

كي تحطَّمي بها جدراناً

ارتفعت بين البشر

صرخة الماضي

«ما زال صوته يرنُ هنا، في عقلي كلما تذكرتُ وجهه الشاحب و عينيه المذعورتين»

هذه الجملة اليتيمة التي يرددها هذا الشيخ الطاعن في السن، المصاب بالخرف و فقدان الذاكرة منذ عهدٍ بعيد؛ هجره أهله جميعا، حتى زوجته العجوز. لم يعد أحدٌ يحتمله؛ شكله مخيف، فهو شبيه بالأشباح التعيسة، الأورام وآثار الجدري المنتشرة في كل أنحاء جسده الهزيل؛ رائحة كريهة مقُرِفة تفوح منه.

الأهالي كانوا يخوّفون أولادهم الأشقياء به قائلين لهم:

«يا ولد. إذا لم تهدأ الآن فسوف يأتي لكي يقطع أُذُنَيك و من ثم يلقي بها في النار».

كنتَ تجده دائماً يتجوّل- حافي القدمين- على أكوام الزبالة و اطلال البيوت الخرِبة، يجمّع الأكياس والملابس المرميّة مِن على المزابل؛ عندما تصبح لديه مجموعة كبيرة فإنّه يحرقها على مزبلته الخاصة، (إن التراب الأسود يُباع! فهو يرنو إلى تكنيز أكبر قدرٍ ممكن من الأشياء، لذلك فهو لا يتوانى عن انتشال ملابس الجيران أو أحذيتهم! كل ذلك فقط من أجل حرقها على مزبلتِهِ المشهورة!).

في أيام الصيف القائظ، كثيراً ما كان يأتي إلى حانوتي المجاور لبيته، حيث يجلس بالعتبة و يسند ظهره إلى إطار الباب؛ يركز عينيه على نقطة بعيدة في الأفق و يذهب في غيبوبة عميقة لا يستقر لها قرار! لولا أصوات-غرغرة- لهاثه المتقطعة بلا انتظام و تشنجات

وجهه القاسية، لكنتَ تظنُّ أنّ الروح قد فارقت هذهِ الكومة المهترئة من العظامِ و اللحمِ. في بعض الأحيان كان يغمغم بكلمات غير مفهومة أو هلوسات ليس لها أية معاني.

كنتُ أعطيه السكر و أعواد الثقاب، فالنار شغله الشاغل و هوايته المفضّلة التي لا يمكنه العيش دونها؛ النار هوسه. « *سوف أحرق كل شيء! كل شيء... اللعنة على...* » و تخنقه نوبة سعال شديدة تكاد تزهق روحه.

ومن ثم يعود إلى تأمله البليد وهو يكيل اللعنات والشتائم يُمنةً و يُسرةً. كثيراً ما كان يردد: « *لا تقتلني.. لا تقتلني... أنا ...! أرجوك، أتوسل إليك...* ».

كنتُ أسأله بشيء من التحفّظ:

- « يا عم، من هو الذي يترجاك ألا تقتله؟»

كان يأخذ نفساً عميقاً و من دون أن ينظر إلي يبدأ بسرد حكايته الوحيدة التي بقيتْ في ذاكرته المشوشة و العقيمة:

« فيما مضى بعيداً، بعيدة جداً، عندما كنا في مقتبل العمر كما أنت الآن يحرقنا الحماس والاندفاع، لكننا كنا فقراء والأيام لم تكن ترحمنا أبداً! أخذ العسكر (العثمانلي) الكثير من رفاقنا إلى (سفربرلك)، لا أعرف إلى أين؟ لكنه مكان سيئ، أعتقد بأنهم ذهبوا إلى مكانٍ بعيد. ذهبوا و لم يعودوا، نعم، لم نراهم بعد ذلك أبداً.

الكثير من الأطفال و الشيوخ ماتوا من الجوع و نتيجة الأمراض و الأوبئة؛ قوافل من المهاجرين الأرمن الذين نزحوا من خلف الخط باتوا ضيوفاً علينا هم و رفيقهم الموت.

حيث شاركناهم الألم و شاركونا الجوع و الفاقة. كل شئ كان يسوء يوما بعد يوم، كانت الحياة كالجحيم، لا تُطاق و لا ترحم و لا تُسترحم، الأمل كان قد مات و أصبح اليأس و القنوط سيد الموقف بلا منازع و جميعنا كنا راضخين، شئنا أم أبينا! بلا حول و لا قوّة و لا طعام.

في تلك المرحلة العصيبة، جاء رجلٌ غريب من وراء الخط، يحمل في جعبته الكثير من الأخبار الأليمة التي تقشعر لها الأبدان و تشيّب رأس الرضيع، راح يسرد على مسامعنا قصص الثوار و الثورات و فشلها التي أودت بالكثير من رجالاتها إلى أعواد المشانق، سرد علينا كيف أنّ الجندرمة يقتلون الأطفال و يغتصبون النساء و يحرقون القرى و المزارع و...

كان حديثه يحرّك فينا مشاعر غريبة وحقد عظيم على هذا العدو، كنا نشعر بالمهانة والذل عندما يحدّث الرجل عن إغراق النسوة لأنفسهن تفضيلاً على العار والشرف المهتوك.

كنا نزداد كرهاً وحنقاً على هؤلاء الأوغاد، قليلي الشرف والرحمة، كان الرجل يلهب حماسنا وعنفوان الشباب فينا بكلماته وأسلوبه الناري.

«ما الذي نستيطع فعله أيها الشيخ؟ كيف نستطيع الانتقام لإخواننا خلف الخط؟» عندما طرحنا عليه هذا السؤال، أجاب متريثاً:

- «*لا تستعجلوا يا شباب، لم تصفر الساعة بعد، تريّثوا*».

كنا ثلة شباب فقراء نجتمع في الليالي الصيفية للسمر والسهر؛ لا عمل لنا سوى التسكع في القرية و بين البساتين و التلال القريبة، و البعض يذهب إلى مضافة البيك للخدمة و الحصول على وجبة من

الطعام يسدُ بها رمقه المحروم. لكن، مع وصول الرجل الغريب إلى منطقتنا فقد التف حوله الكثير من الشباب، و لم نعد نذهب إلى مضافة البيك إلا قليلاً، و بات الحديث عن أخواننا المظلومين خلف الحدود تأخذ جل حديثنا و أصبحت شغلنا الشاغل.

أتذكر ذلك اليوم الذي جاء فيه الرجل بخبرٍ انتظرناه ردحاً طويلاً من الزمن، بلهفة و شوقٍ و ولع.

-« *ايها الشباب! حانت الساعة. ساعة تلقين الأوغاد الدرس القاسي؛ ها؛ هل أنتم مستعدون يا شباب؟* ».

بعض الشباب المترددين انسحبوا من جماعتنا؛ عدد منهم طلبوا تأجيل الموعد بحجة أنّ لديهم أعمالاً مُهمةً جداً، و الحقيقة إن الخوف و الرعب كان قد دبّ في نفوسهم الجبانة (لأن الجندرمة لا يمكن أن تُهزم أبداً) هذا هو منطقهم المتوارث أباً عن جد، و هذا ما أثّر سلباً على استعداداتنا.

تمكننا من تدبير أربعة تفنكات (بنادق) قديمة، و اتجهنا صوب الحدود، و هناك في ليلة ظلماء اجتزنا خط الحدود بسهولة، كان هدفنا هو مخفر حدودي، الجندرمة كانوا سكارى، و هذا ما سهّل علينا العملية التي لم تدم طويلاً حتى كان سبعة منهم في قبضتنا؛ كنا نريد أن نتلذذ في طقوس التصفية لكي نبرهن لهم بأن القاتل يُقتل، وبأننا لسنا نعاجاً راضخة لقدرها الأليم.

قتلنا أربعة منهم دفعة واحدة، حيث راحوا يسبحون في بركة دمائهم الساخنة، كان الدور قد وصل إلى جندي مذعور مصفرّ مثل الليمون الحامض، أنكبّ على أقدامنا و راح يتمرّغ في التراب، متوسّلاً باكياً، مولولاً « *لا تقتلوني لا تقتلوني، أرجوكم، أنا فقير... الرحمة،*

لديّ أطفال لا تقتلوني أرحموني... أنا مثلكم! أنا. أنا أيضاً كرمانجي أقبّل أرجلكم لا تقتلوني، نعم لن تقتلوا كرمانجياً مثلكم.»

كان ذعره عظيماً جداً، و منظره فظيعاً للغاية؛ صاحبنا(سيدو) تأثر لحال الرجل و بدا من شكله أنه لن يتمكن من قتل الرجل، فقد لاحظتُ القلق بادياً على مُحيّاه و لم تطاوِعهُ نفسه على قتل الجندرمة- الكرمانجي.

- ماذا تنتظر يا سيدو؟ هيا أطلق النار، أطلق النار يا سيدو، لا تتردد يا سيدو استعجل...

- إنه كرمانجي ... و ليس تركيّا!

- إنه خائن! إنه كلبهم الخائن، لا يعرف سوى الله كم قتل هذا الوغد من إخوانه؟ هيا اقتله بسرعة... إن أمثاله لا يستحق الرحمة!

صوّب سيدو بندقيته إلى صدر الجندي المذعور، كانت يداه ترتجفان... مرّت اللحظات ثقيلةً مملّة، و كأنها الدهر كله. سيدو لم يطلق بعد، حبيبات العرق انبثقت من بحيرةِ جبينهِ الأمرد؛ الجندي كان قد هدأ من روعه و عويله الثعلبي المزعج، كان يستشعر النجاة من موقف سيدو؛ الذي تراخت يداه للأسفل. لاحظتُ بشائر الأمل على وجه الجندي. وصل حنقي و غضبي إلى أبعد الحدود، أزحتُ سيدو بقسوة بعيداً و نهرته:

« أيها الجبان! إن قلبك لقلبُ حُرمة، لا و الله حتى الحُرمة أشجع منك يا سيدكو! شجاعتك لا تضاهي شجاعة دجاجة». و بلمح البصر وضعتُ فوهة البندقية على صدر الرجل و أفرغتُ فيه رصاصتي اليتيمة.

صرخة واحدة، واحدة فقط، لكنها كانت فظيعة جداً! صوته ما زال يرنّ في أذنيّ، آه مازلتُ أتذكر وجهه المذعور الذي لا يفارقني! كان فزعاً جداً، لا أعرف هل كان عليّ قتله أم لا ؟». قتلونا و قتلناهم، هذه البلاد لا تعرف سوى القتل، أية لعنة حلت علينا؟»

* * *

هكذا كان يسرد حكايته العتيقة، و يرفقها بإطلاق زفرات حرّا، طويلة من أعماق قلبٍ محروقٍ معذّب، كان يقطع حبل حديثه بلا مقدمات و يغرق من جديد في بحره العكر من اللهاث و العصارات النادحة من فمه (الدريد).

كثيراً ما كان يكيل سيولاً من الشتائم و السباب إلى أولاده و أحفاده الذين تركوه في خريف العمر؛ بعد أن ورثوا عنه المال و الأرض وبعد ذلك يتكبرون عليه رافعين أنوفهم عالياً كلما مرّوا به أو سمعوا باسمه! فهم يعتبرونه عاراً على عائلتهم، متناسين بأنهم كانوا- قبل عدة سنوات- يخدمون الناس مقابل إشباع بطونهم الخاوية، إلا من الجوع! الآن لا يلقون بالاً على هذا الرجل المتأرجح على حافة المنون.

في ذلك العام، حلّ الشتاء باكراً، بزمهريره الطاعن، و رياح الشمال التي لا يصمد أمامها مخلوق، زاحفاً على الخلائق المتكومة على نفسها كالقنافذ الحذرة المتوجسة خطرًا ما، (من المهمات الأساسية للشتاء مكافحة الشيوخ و المرضى. الضربات التي وجهها الشتاء إلى صاحبنا أصابته في الصميم، استسلم لها من الجولة الأولى بدون أية مقاومة تُذكر، فقد خانته عظامه المنخورة و جسده الهزيل).

لقد ولّى من غير رجعة، أراح نفسه و ريّح أهله- كانوا أهله في يومٍ من الأيام- الذين تجمعوا حول جنازته و دموع الرياء تنهمر من أعينهم... راحت النسوة في رثاء الفقيد، و ذكر خصاله الكثيرة (مع الكثير من التضخيم و التهويل الأسطوريين) و أنا متأكد لو كان بإمكان المسكين المسجى سماع هذه الكلمات المعسولة، لفضّل العودة إلى الدنيا للعيش بين هؤلاء الأحباب و الأهل الغُباريين! لكن، و للأسف الشديد بأن كل شيء ليس سوى غبار! غبار لا أكثر و لا أقل. و الغبار يذهب مع العجاج بعيداً دون أي ذكريات.

كل شيء، أنهار الدموع وهذه الولولات الجهنمية الزاعقة وتمشيطات الشعر(التهريجية)، غبار.

في الليل عندما يلوذون إلى بيوتهم، أول ما يقولونه:

« الحمد لله لقد أزال عن كاهلنا حملاً ثقيلاً» ثم ينزلقون في فرشهم الدافئة.

{نعم يا عزيزي، هذا هو حالنا معهم لقد مرّت الأحوال على موته و لا أدري لماذا دونتُ هذه السطور؟ هل هي رغبة في التنبؤ بالآتي؟ أم رغبة خفية لإظهار رياء الدهماء؟ أعتقد بأنك أفضل من يجاوب على هذا السؤال الأزلي}.

انتصارُ الضَّمير

كان العرق يتصبب منه بغزارة، فتجعل ملابسه العتيقة اللزجة تلتصق بجسده المنهوك من الأرق، مثل دابةٍ سائرةٍ في مدارٍ لولبي، مربوط بسلاسلٍ غير مرئية يصعد درجات السلّم و ينزل بلا توقف.

كان قد حفظ عدد وشكل كل واحدة من درجات السلّم، فيكيل سيولاً من الشتائم والسباب - في سره- إليها و إلى عددها الهائل، فكل درجة من درجات السلّم تعني له عذاباً أكثر و أرقاً لا يُحتمل.

منذ الصباح وهو يعمل في نقل حمولة حافلة كبيرة من الرمل، من الأرض إلى الطابق الثالث من البناية. شمس آب الحارقة تلفح وجهه الغض المغبّر بالتراب و الدهن المعدني، ولأنه يعمل بالأجرة اليومية، فيجب أن يسرع في العمل (هكذا يريد منه أصحاب العمل)، وهما رجلان عجوزان طاعنان في السن يشبهان كل شيء ما عدى البشر.

أحدهم قصير مثل الضفدع يشبه السحرة والمشعوذين، لا يكف عن النقيق والثرثرة على رؤوس العمال، والثاني أبلهٌ لا يفقه شيئاً سوى اطلاق الهراءات و الأحاديث التافهة.

و مع ذلك، فهما أصحاب العمل، وقوت العمال بين يديهما. إنهم أغنياءُ جداً، ومع ذلك فهم يبيعون حبات التين على قارعةِ الطريق العام، حتى أنهم يحسبون جُرعات الماء على الناس.

وهو أيضاً كان مجبراً على العمل عندهما، فهو بحاجة ماسة إلى المال، أفواه فاغرة تنتظر الشبع، أجساد عارية بانتظار الكساء، وهو؛ أحلام شاب صاعد قاسى الحياة منذ غضاضته، ناضل و مازال لأجل مستقبله.

عمل، دراسة وشجار، يعمل ويعمل؛ لكن لا أساس ولا مورد له سوى العضلات، يستريح هنيهات معدودات، حتى يسرع في دوامته الرتيبة، قبل أن يزعق الضفدع المشعوذ عليه؛ وهو يردد في نفسه «*يا إلهي! لماذا؟ لماذا مكتوبٌ علينا أن نحفر في الصخر من أجل لقمةٍ ملطخةٍ بالعرق والذل والمهانة، لماذا؟*».

* * *

أصابته الدهشة والحيرة؛ حار ماذا يفعل و كيف يتصرف. ولكن العادة التي أكتسبها من دورانه الدائم جعلتهُ يصعدُ الدرجات من جديد بشكلٍ لا شعوري، وقلبهُ يخفق بدقاتٍ هادرةٍ على قفص صدرهِ الصاعد والهابط بعنف.

جسده ازداد حرقةً ولهيباً (فهو هكذا دائماً في المواقف الحرجة والمتوترة).

عاد نازلاً الدرج وهو يشعر بالرعبِ والقلق، رغم أن المسألة لا تستحقُ كل هذا التوتر والخوف، وصل إلى نهاية الدرج؛ وجدها لا تزال تتقلب بحرية على الأرض، بجانب كومة الرمل، كأنها تناديه، راح يسأل نفسه: «*ماذا أفعل؟ هل أحملها؟*».

كان ينظر حوله بريبة وقلق، لم يتجاسر على حملها، خوفاً من أن يراه أحد، لكنه وضع حجراً عليها كي لا تطير.

عاد من جديد إلى (غرّافته) الرتيبة المرهقة مردداً: «*نعم سوف أحملها، أستطيع أن أشتري بها الكثير من الحاجيات، كتب للمدرسة وملابس وكذلك حذاء و كل شيء...*».

تغلب على خوفه و حمل الأوراق من على الأرض و دَسَّها بوجل و

ذعر شديدين في جيبه، بدأت الصراعات والتناقضات تفور و تغور في عقله و قلبه.

- «لماذا أخذتها؟ أنها ليست من حقك! ربما رآك أحدٌ ماذا ستقول لهم؟ ربما كانوا يمتحنون أمانتك».

- «لا تخف يا رجل! إنه رزقٌ حلال لك».

- «كلا. لا تفعل ذلك، أين الأخلاق؟ أين القيم؟ هل نسيتهما؟».

- «أنت بحاجة إلى المال... فكر بأخوتك، فكر بنفسك و بمدرستك».

كان لا يزال ينقل الرمل الأحمر من الأسفل إلى الطابق الثالث من البناية، يئن تحت ثقلها الجسيم.

الرمل الناعم لوّث شعره الكستنائي الطويل، شعورٌ غريب طغى عليه و أربكه كثيراً و راح قلبه يزداد خفقاناً، كان يشعر وكأن أعين الناس مصوبة نحو جيبه الحاضنة لأحد عشر ألف ليرة! أحد عشر ألف همٌّ و غمٌّ وقلق و عذاب الضمير و الندم، الصراع و المعركة كانت حامية الوطيس بين القيم والقيمة المادية، بين الـ (أنا العليا) و الـ (أنا السفلى).

الصراعات كانت قائمة في أوجها، صراعٌ داخليٌ عنيف من البراكين الهائجة والثلوج التي تحاول إطفاء النيران المتوقدة في فكر هذا الشاب الأسمر ذو الشعر الكستنائي، المهاجر من بلده لأجل توفير الحياة اللائقة لأهله و لنفسه.

الصراع مازال مستمراً في كيان الشاب، وهو في حيرة من أمره، هل يسكت على المال؟

- «كلا إن أخلاقك ليست هكذا...».

- «لا يا رجل إن صاحب العمل لا يستحق الطيبة، فهو شرير و متعجرف، لا تعطيه اللقمة التي وصلت إلى فاهك!».

- «مهما كان. فلا تتنازل من أجلِ حفنةٍ من المال عن مبادئك و قيمك السامية التي تؤمن و تنادي بها».

* * *

قبل الغروب كان قد اقتراب موعد الانصراف... الصراعات ما زالت دائرة في عقله، كان يريد أن يصل إلى قرارٍ حاسمٍ و نهائي.

- «تشجّع، لا تتردد، هيّا!».

كانت الشمس قد مالت نحو الغروب فانعكَسَت أشعتها الوردية على صفحةِ البحر الهادئ، جعلت الكون لوحةً رومانسيةً شفافة تريّح الروح.

تشجع الشاب و بخطواتٍ واثقةٍ و جريئة اتجه نحو صاحب العمل، وقف أمامه بهامةٍ مرفوعةٍ و أشعة الشمس الوردية الساقطة على جَبهتِهِ من النافذة المقابلة ترسم على وجهه أعذب التعابير و أرقها.

تطلع إليه العمال بتعجبٍ واستغراب؛ وقف أمام العجوز وخاطبه:

- «هل أضعتَ شيئاً من نقودك يا عم؟».

و قبل أن يجاوب العجوز، فقد كان قد مد يديهِ إلى جيبهِ و ناول النقود للعجوز، فرح العجوز كثيرا؛ وهو يردد:

«لا أعرفُ كيف أشكرك؟ أنت أمين جداً، أنت شريف!».

تنفس صاحبنا الصعداء، كان يحسّ بأنه أزال حملاً ثقيلاً عن عاتقه وأراح نفسه وناصر ضميره.

- «أنك أحمق و غبي جدًا»، هذا ما قاله رفاقه له، بعد أن أخبرهم بالقصة، لكنه لم يكترث لهم و لتقريعاتهم اللاذعة وهو يقول: « إن راحة الضمير أثمن من مال الدنيا كلها».

آه ياصغيرتي

يسيل بلا مبالاة في مجراه الأبدي، لا يكترث بما حوله من الجبال و الغابات و القرى.

يستعجل الخطى لكي يستدرك موعده الأبدي مع نهايته و ولادته من جديد، فهو يعرف البداية و النهاية أكثر منا جميعا، وهذا ما اكسَبَهُ خصائص اللامبالاة و التكبر على كل الأماكن التي يمر بها في كل لحظة من الزمن...

فاللوحات هي نفسها في القرية. الغابات لا تثير انتباهَهُ البتة، حتى الممرات الجبلية الهائلة و البراري الرملية الصفراء و المدن الكبيرة لا تحرك فيه الإثارة و الإعجاب... فيا لك من غريب الأطوار أيها المتكبر!

منذ اللحظة التي حدثني فيها هفال آمد عن حكايتها وأنا أتلهفُ شوقاً لزيارتها و السؤال عن حالها. كانت المسافة بيننا أياماً و سنين زمنية لا يمكن قطعها في الواقع. و لكن كيف سأزورها إن رضختُ لقوانين الزمن المجحفة، لا بدّ ليّ من إيجاد وسيلة ما للوصول اليها.

مثلما حدثني هفال آمد عنها و عن مكانها بالقرب من ذلك المتكبر، كان عليّ أن أقطع الكثير من الوهاد السحيقة و القمم السامقة لكي أصل إليها، هدفي الأساسي لم يكن الوصول إليها، إنما المرور من عندها كعابرِ سبيلٍ طارئ ليس إلا.

* * *

كان يقف أمامي بصوته الهدار وأمواجه الفائرة، مما أوقعني في خوفٍ و تردد في أمري.

هل أعبره إلى الطرف الآخر، أم لا؟ كان عليّ أن أعبره لوحدي، وهذا ما يتطلب المجازفة للعبور إلى الشاطئ الآخر.

لم يكن العبور سهلاً كما تتوقعون، فلم يكن عبور نهرٍ عادي البتّة! لم يكن جذفاً بالطوافة بضعة أمتار للوصول إلى الشاطئ الآخر؛ إنما كان عبوراً على نهر الزمن، من شاطئ الحاضر الذي أصبح ماضياً الآن، إلى شاطئ الماضي الذي كان حاضراً قبل خمسة أعوام من تلك اللحظة التي كنتُ أهمُّ فيها بالعبور إلى الطرف الآخر من الزمن.

تماماً كما وصفه الرفيق الذي فقد أحد عينيه في هذا الجبل الذي يسمونه جارو (المسكين) بسبب جحفه وقساوة طبيعته التي لا ترحم! جبلٌ مسكينٌ لا يرحم حتى نفسه و نهرٌ متكبرٌ لا يبالي لاي شيء، حتى للا مبالاته! وبينهما لمحتُ أطلالاً قديمة ولكنها مهيبة جداً. لا أعرف لماذا شعرتُ بقدسية ذلك المكان الهادئ؟ شعرتُ بالرهبة، رهبة المكان الذي يعتبر الخط الفاصل بين التكبر النهري والبأس الجبلي. نعم تماما كما وصفه!

خمس سنوات تقهقهرتُ إلى الوراء، غاصاً في تلابيب الماضي الذي من المستحيل الغوص فيه بلا مركب؛ ولكنني غصت ولا أعرف كيف؟! كلما صعدت باتجاه قمة الجبل البائس (كورى جارو) فإن الصخور التي تشبه الخناجر المغروسة في كبد الأرض والصاعدة نحو السماء، تجعلك تشعر بغطرسة هذا الجبل المسكين. هذه الصخور كانت تأوي بين أحضانها الخشنة سرايا المقاتلين التي تربض هنا في

مواجهة الحملة الكبيرة التي يشنها العدو منذ أيام على هذه الأراضي الشبه محررة (يقولون عنها جمهورية)!

شواطئ النهر المتكبر، شهدت الكثير من الطقوس التي لا تنسى، والجبل البائس(كورى جارو) كان ملعباً لرقصاتٍ ليس لها مثيل.

الكل يستطيع الرقص أينما شاء ولكن الرقص على سفوح كورى جارو لشيءٌ عصيب، وهنا كانت الرقصة قائمة، رقصة مختلفة تماماً عما تَعرفونهُ عن الرقصات؛ رقصة جديدة، أو ربما قديمة وجديدة في الآن عينه، ولكنها مثيرة جداً.

النهر المتكبر لم يكن يلقي بالاً على تلك الرقصات وكذلك الأمر بالنسبة إلى الجبل الذي يشكي ويبكي سوء حظه وبؤس حياته. لكن الرقصة كانت قائمة، حيث تدور الدائرة بلا توقف على إيقاعات القذائف وأنغام الصواريخ ورنين الرشاشات وهدير الحوامات، وصرخات الموت و...

إنه الخريف، يبكي على شبابه الذي مات باكراً وعلى كهولته الذي لم يراه ولن يراه البتة!

كنا نعرف بأن الشفق يمثل الضياء الوليد والأمل المنبثق بعد حلوكة الظلام الجهنمي؛ ولكن هذا(الشفق) كان مختلفاً تماماً! فقد كان اسم الحملة التي أراد من خلالها العدو أن يحرق الشمس ويقتل النهار ويسحق الوردة النابتة على المنحدرات الخطيرة. كانت عجلة الحرب تدور بالنار و الفولاذ، فتهضم الأرواح الفتية و تروي الأرض الحمراء القانية.

صغيرتنا القادمة من أرض النجمة الحمراء، من بلاد القوقاز البعيدة، هناك، بعيداً من قرى جبال آلاكاز الكردية في القوقاز حيث

تدوى صرخات (بروميثيوس) المكبّل بتلك الجبال و الجوارح تلتهم احشائه منذ الأزل. و هي أيضاً كانت تشارك في هذه الرقصة التي لم يعهدها بعد، لكنها كانت مضطرة للدخول في هذه الطقوس التي لا ترحم.

النهر المتكبر يعسر عليهم العبور إلى الطرف الآخر، والعدو يتقدم بكل آلة حربه الجرارة لكي يضيق الخناق على الكريلا، و(كورى جارو) يبكي بؤسه وحرمانه الأزلي، فليس أمام صغيرتنا القادمة من بلاد القوقاز إلا أن تشارك في هذه الرقصة النارية ضد هذا الجنرال الذي لا يعرف لون الورد ورائحة التراب وبسمة الطفولة؛ لكنه يستطيع أن يزمجر بكل جحف وغطرسة قائلاً: «أنا هنا، لقد أعلنوا جمهوريتهم هنا... وهنا بالذات سوف ندفن هذه الجمهورية ونجهضها للأبد كما فعلنا مع آبائهم و أجدادهم»!

* * *

وأنتِ أيضاً يا صغيرتي «برفين» سوف ترقصين هذه الرقصة التي لا ترحم، سوف ترقصين على المنحدرات والسفوح وبين الصخور الخنجرية، فما باليد حيلة، برفينتي.

لكن، كوني حذرة ومنتبهة جداً، لا تعرضي نفسك للمخاطر، كوني حذرة فأنا قد جئت من بقاع بعيدة جداً كي ألقاكِ، لذا يجب أن تنتبهي حتى تصبح الأوضاع على ما يرام...

الجبال الإلهية كانت قد أضحت كلها جبهات قتال؛ بين الجبل والوادي، الأرض والسماء، وحتى مع النهر المتكبر. فهناك قامت امرأة فاشية تقود طائرة حربية بتفجير جمجمة طفلة قروية صغيرة تشبه الغزالة اللعوبة! وكانت نشوة المرأة (الطيارة) كبيرة جداً في نصرها

الساحق لإنها تمكنت بقذيفة تزن طناً من القضاء على تلك الحورية الصغيرة.

كانت الرقصة دائرة بلا توقف. هفالة برفين أُصيبت بطلقة في رجلها، و باتت الرقصة تأخذ طابعاً جدياً ومقتضباً على مجرى الألعاب الفولاذية. الجرح كان أليماً جداً، والأكثر ألماً هو بقائها وحدها في غابات الجبل تحتمي من هطول القذائف و الرصاص و انفجار القنابل. لم تكن تعرف كيف تتصرف وأين تتجه. أسعفتها ذاكرتها إلى حوادث مشابهة حيث كان الرفاق يربطون فوق جروحهم حتى تتوقف الدماء عن النزف، فلجأت الصغيرة برفين إلى شد جرحها بحزامها القماشي بكل ما أوتيت من قوة وحول.

بعدها بدأت تبحث عن الرفاق المنتشرين في كل مكان، لم يكن قد أصاب العظام بسوء وهذا ما أعانها على المشي والحركة في سفوح الجبل و الروابي و بين الاخاديد.

هناك، تحت قرية (أتوتى) الجبلية، كانوا قد أوجدوا مكاناً لمداوة الجرحى، وبعد ثلاثة أيام وصلت هفالة برفين إلى رفاقها، حيث نقلوها فوراً إلى المعالجة.

- ليتكِ لم تفعلي ذلك يا صغيرتي. ما كان يجب أن تمنعِي الدماء عن النزيف بين الحين والآخر. فالدماء المتجلطة كانت قد تجمعت حول الجرح، فآلت إلى التهابٍ تعشعش في اطرافها.

كانت الغرغرينا تمد أذرعها كالسرطان في أطراف الجرح، كان يجب أن يتدخل الطبيب- المحروم من كل الأدوات الطبية والجراحية- لإيقاف انتشار الورم الخبيث وإلا سوف يكون ما لا يحمد عقباه!

كان الشريان الوحيد الذي يربط شطيّ النهر(المتكبر) قد انقطع جراء القصف الجوي الذي شنته طائرات العدو؛ وعبور النهر شبه مستحيل في تلك الأجواء الخطيرة.

لكن يجب أن يصل الطبيب أو على الأقل أن يرسل المعدات اللازمة للجراحة. لكن لا هذا و لا ذاك... الجرحى كانوا يتألمون كثيراً والأكثر ألماً وبكائاً كانت الصغيرة برفين؛ هذه الصغيرة القادمة من بعيد كانت تتألم كثيراً بسبب انتشار الورم في رقعة كبيرة من قدمها صوب طرفها كاملة، و لم تكن المسكينة تستطيع النوم كي ترتاح قليلاً من آلامها العظيمة، كان الألم يفسد عليها قرة العين. «آه ياصغيرتي برفين! ما كان يجب أن تفعلي ذلك، فقد نصحتك بالحذر وأخذ الحيطة. اصبري قليلاً يا صغيرتي، اصبري، فسوف يأتي الطبيب وينهي آلامك... اصبري قليلاً ياصغيرتي برفين إنه سيأتي اليوم مع الفجر».

كانت الدموع الحرّى تنهمر بلا انقطاع من عينيها العسليتين. النهر المتكبر لم يكن يبالي لآلامها العظيمة، والطبيب كان حائراً في كيفية عبور النهر حتى يسعف المقاتلين الجرحى لأن حالة بعضهم كانت في تدهور دائم وخاصةً هفالة برفين...

- أيها النهر المتكبر! أبسط قاعك حتى يمر الطبيب كي ينقذ صغيرتي من آلامها العظيمة، كفاك أيها المتكبر غطرسة ولامبالاة نحونا... وإلا سوف أحرقك وأودي بغرورك و لامبالاتك إلى جهنم! إن صغيرتي لم تعد تقدر على تحمل الآلام.

لكن هذا المتغطرس لم يكن يبالي لصرخات أحزاني على الصغيرة برفين، كان الورم الخبيث قد جنّ جنونه وراح يفتك بلحم المسكينة بلا

توقف، عندما وصل الطبيب، كان نصف رجلها قد أصبحت لقمة سائغة للغرغرينا، ولا أملٌ يرجى من معالجتها؛ لذلك كان لابد أن يتخذوا القرار...!

كان يجب أن يبتروا ساقها من تحت الركبة، كي يسدوا الطريق أمام صعود الورم الخبيث إلى القسم العلوي من الطرف.

- ليس سهلاً أن تبتروا قدم المسكينة، إنها ماتزال في يناعة الورد، ارحموها يا أعزائي، إنها لاتستحق أن تعيش بقدم واحدة.

- ما باليد حيلة، فمن المستحيل بمكان أن نوقف انتشار هذا الورم الخبيث، وليس أمامنا سوى أن نبتر الجزء الذي فتك به الورم، وإلا...

- وإلا ماذا يا هفال-الطبيب؟ ما الذي تريد قوله؟ ماذا تعني «و إلا...»؟

- أي أن الأمر في غاية الخطورة و يجب أن تتفهموا الوضع...

استمرت العملية لساعاتٍ طويلة، تحت هدير الطائرات وانفجار القذائف والقنابل وأزيز الرصاص، وانتهت العملية، و صغيرتنا برفين كانت قد فقدت رجلها لكن الألم لم يتوقف وكذلك الورم كان قد تسلّ إلى الطرف العلوي للجرح وهذا ماجعل الأطباء يضطرون إلى إجراء عملية أخرى كي يبتروا فوق ركبتها أيضاً. ولكن الورم لم يكن يبالي لتدخلات الأطباء وعملياتهم الباترة، و لا لتوسلاتنا و ابتهالاتنا إلى كل القديسين و الارواح العظيمة و الأرباب الناقمة، حيث كان ينهش جسد المسكينة بلا رحمة فحالت إلى كومة من عظام وجبل من الآلام ونهراً من الدموع و...

و الورم كان قد وصل إلى أعلى الفخذ، هازئاً بالطب والجراحة

والعواطف الإنسانية، والأطباء كانوا في حيرة من أمرهم من هذا الورم الخبيث الذي لايتوقف رغم كل شيء.

- يجب أن نبتر فخذها من المفصل حتى نزيل جذور الورم من أساسها.

- لكنها لن تتحمل كل هذه العمليات يا دكتور! إرحموها، إنها صغيرة لاتتحمل...

- وهل تريدنا أن نتركها فريسة لهذا الورم الخبيث حتى يقضي عليها؟ قل ليّ، هل تريد ذلك؟ هل من الإنصاف ترك الصغيرة فريسة في مصيدة الغرغرينا؟

- لكن لاتنسوا أن هذه العمليات سوف تودي بها إلى... فهي باتت في مصيدة المشارط و السكاكين...

- ما باليد حيلة! فنحن مضطرون إلى إجراء هذه العملية- الأخيرة. إنها أملنا الوحيد، نحن مجبرون. أرجو أن تستوعبوا موقفنا نحن مضطرين لذلك...

« آه ياصغيرتي برفين، لم أعد أتحمل رؤية آلامك، إغفري ليّ لأنني لا أستطيع أن أفعل شيء لكِ، فبيننا خمس سنوات من الزمن الذي لايمكن اختراقه أبداً...»

- سوف نجري لكِ العملية يا هفالة برفين، هل أنتِ جاهزة؟

- وهل ستنتهي آلامي بعد العملية يادكتور؟ هل سأشفى من هذه الآلام؟

- نعم، سوف تكون نهاية الآلام. سوف نخلصك من الآلام...

- بعد العملية هل سأتمكن من أن أنام يادكتور؟ إن عينّي لم تريا النوم منذ مدة طويلة أريد أن أنام، هل سأستطيع أن أنام كما أريد؟ (كانت إشراقة أمل كئيبة تسطع من عينيها الغارقتين في الدموع ووجهها المصفر).

- نعم هفالة برفين، سوف تنامين كما تشائين ياصغيرتي...

« سوف تنامين ياصغيرتي، سوف تنامين، ولكن هل ستتوسدين هذه الصخور الخنجرية وتنامين في أحضان هذا الجبل، فيهدهدك صوت النهر وتتلاعب بخصلات شعركِ نسمات الرياح التي تهب من الجبال البعيدة، أم ماذا...؟»

كانت الصغيرة الهادئة المخدرة تنازع تحت المشارط والمقصات الحادة التي كانت تعضُ جسدها الناعم فتبتر فخذها من المفصل العلوي.

استمرت العملية لساعات، وعمليات حملة (الشفق التركية) كانت دائرة على قدمٍ وساق والصراع قائم بين سلطان الموت الجبار وبين روح هذه الفراشة الصغيرة التي تنازع جبروته بجسدها المنهك... إنه الصراع الأبدي بين حب الحياة والموت فأيهما سينتصر ياترى؟

الكل ينتظر النتيجة، الرفاق الآخرون كانوا قد تناسوا آلامهم وآهاتهم؛ لهفة وقلقا على الصغيرة.

«سوف تقوم الآن وتهرع إلى ألعابها ومشاكساتها المدللة، سوف تقوم الآن لتذهب إلى موعدها مع الغزلان، سوف تجمع لنا الورود وتنشر ابتساماتها الملائكية علينا، فالنرجس والسوسن والنسرين بانتظارها...»

شارفت العملية على الانتهاء وكانت الصغيرة برفين قد غطّت في نومٍ عميقٍ بلا قاع، لا الآلام ولا أصوات الانفجارات لن تفسد عليها نومها الهادئ.

حتى دموع رفاقها وأحزانهم الحارقة على نومها الأبدي لن يفسد عليها هنائها بالنوم، ارتاحت من عذاباتها وآلامها و سهادها.

« نامي يا قرة عيني، نامي كما تشائين، فسوف أحرسك ريثما تنهين وتشبعين من النوم، فأنا لأجل هذا قطعت كل هذه المسافات وبترت الزمن الذي لا ينبتر أبداً، لكي أراكِ ياصغيرتي الساكنة على شاطئ النهر الأزلي، فما زلتِ نائمة هنا يحرسك رفاقك الذين لحقوا بك كي يشاركوك المرقد الخالد...»

❖ ❖ ❖

إنها هنا بلا ريب، تماماً كما وصفها هفال آمد، لكنه لم يتحدث لي عن هذه النافذة التي أودت بِيَ إلى الماضي؛ يبدو أنه نَسِيَ أو سهى عن الحديث.

لكن لابأس فإنني سوف أتابع سبيلي نحو أرضٍ مجهولة لا أعرفها، سأصعد هذا الجبل البائس وأعبر نهر القداسة والحب، حيث يستقبلني سلطان الموت الناري ساداً عليّ دَربِيَ الأبدي، فأعود أدراجي إلى مرقدها الأزلي وأخرُّ ساجداً لها ولآلامها العظيمة، فهي قد أمست في روحي وفكري مثل القصيدة...

آهٍ يا صغيرتي

دعيني أصنع ناياً

أعزف به لحن أشجان الجنون

و أرثو حزني عليكِ
يا راقدة حتى الخلود
في أحضان العين الباكية
و حرقة قلبيّ الشريد.

دعيني
أحضن عظامك المتشطرة
في سفحٍ محروقٍ بأنين.
هلمّي معي
نداوي جروح الزمن
و نزيل آثار الطلقة اللعينة
التي أخترقت بدنك.
سأحمل ساقكِ المبتورة معي
و نذهب سوياً
إلى أرضٍ لا نعرفها
و سماءً لا نعرفها
...
سأحمل ساقكِ المبتورة معي
و أكتبكِ قصيدة و أقصوصة
في دفتري الحزين

عن صرخاتك تحت المشارط

و آلامكِ العظيمة

و نومكِ كقطة صغيرة

في صباحات الربيع

الباحِثُ عن الحقيقة

شهرزور! أيتها الأرض التي تحرقين آمال شبابنا الفاني جرياً خلف نتفاتٍ من ثنايا السحب الإلهية العقيمة، بأيّ حقٍ تعتدين على خيالاتنا الجميلة بواحة من الحنان و الحب؟!

منذ اللحظة الأولى التي داعب فيه النور عينيه وإشارة استفهام كبيرة تدور حوله في كل الأشياء والحركات، و تصرفات المحيطين به.

هديته الأولى كان دفتراً أخضر من والده، كان الدفتر في حضنه أينما ذهب أثناء اللعب، أثناء النوم وهو يحتضن دفتره الذي لا يبارحه أبداً.

لم يأبه بكل الأشياء والألعاب حينما هاجر مع ذويه إلى مدن غريبة و بعيدة، الشيء الوحيد الذي أخذه معه هو(صاحِبه الدفتر).

الحروف الأولى من قصة حياته كتبها على الدفتر لأخضر، كبر صاحبنا والدفتر تزداد عليه آثار المداد، طلاسمٌ لا يفقهها سواه و معاني غريبة للحياة، دائماً عليها و حولها المئات من الأسئلة وإشارات الإستفهام؟ لماذا؟ كيف؟ أين؟ متى؟ هذه الأسئلة كانت البذور التي تنبت منها طلاسم دفتره الأخضر!

أصبح شابا طويلاً أسمراً والدفتر يكبر معه، يتغذى بغذاء روحه ونور فكره، يتقاسمان معاً الكساء والغذاء، الأفراح والأتراح، يشتكي كل منهما لصاحبه، فهما الملاذ الوحيد الآمن لهموم قلبيهما وعواطف روحهما وسخريات الأقدار منهما.

العالم حوله كان عبارة عن كتلة كثيفة من الأسئلة و التناقضات، ما إن يحل إحداها حتى يجلب معه آلاف الأسئلة الأخرى.

أحلامه كانت كثيرة جداً، أراد أن يكون بطلاً مثل أبطال قصصه: «لا، سوف أصبح كاتباً... أو حتى ضابطًا! كلا! بل سأصبح رئيسً لجمعية أو نادي، أو حتى رئيساً لحزب».

جمع حوله عدداً من حاملي قلائد استفهامية كبيرة: « الآن سوف نفتتح الجمعية... أنخابكم يا أصدقاء».

لكن هيهات بين تحقيق الأحلام وتحويلها إلى الواقع وبين الحقيقة التي لا ترحم، الحقيقة: الصخرة التي يصطدم بها رأس من يخالفها!

ولكن لماذا؟ أسئلة وأسئلة تتدون على دفتره العجيب، لم يتجاسر أحدٌ على محاولة قراءة الدفتر، وإذا قرؤوها فلن يفقهوا منها شيئا! الدفتر أصبح هو، وهو أصبح الدفتر! لكي تعرفه فيجب أن تعرف الدفتر الأخضر. على غلاف الدفتر صورة لطفلةٍ صغيرة (العالم طفلة بريئة، لكن البشر العابد لنفسه المنحطة، يحاول سحق هذه الطفلة وهو يتفاخر بحضارته وتقدمه...).

بطلنا لم يبكِ في حياته كما يبكي الناس، بكاءه كان سيلاً من الكلمات المنهمرة على دفتره الأخضر الذي أصبح حاوي كيانه، روحه، وطنه، شعبه وأفكاره كلها، الدفتر كان ينهل منه المعرفة وهو كان يحصل على الإلهام من دفتره الأخضر.

ترك المدرسة بمقاعدها الباردة الصلبة ونظارات المدرسين السميكة، وحياته الركيكة الرتيبة، حدث كل ذلك بعد أن حضر إحدى الندوات، حول الشباب ودورهم الحالي والخيارات المستقبلية.

توصل صاحبنا إلى نتيجة هامة جدا غيّرت مسار حياته: «القلم والدفتر بحاجة إلى الحرية للكتابة والتعبير الحر، لكنهم يقيدون قلمي بآلاف القيود والقوالب الفولاذية المعمولة حسب أفكارهم وقناعاتهم الضيقة، يقومون بتشهير دفتري و قلمي الصارخ، ينعتونها بالمحرمات الخطيرة على سلامة المجتمع والوطن».

ودّع ملاعب طفولته ومترع شبابه، قائلا لمحبوبته: «أبقي هنا! أنني راحلٌ وراء الحقيقة، يجب أن تعلمي بأن الحقيقة مهرها غالي جدًا، هي مثل الحسناء الساكنة في قصر سحري، لا تتنازل للحضور إليّ، لا أعرف لماذا؟ و لكنني سوف اذهب إليها مهما كلفني ذلك من ثمن...».

لم يحمل شيئا معه سوى الدفتر الأخضر(فهو حياته القديمة و الحاضرة والآتية) كانت حياته الجديدة والجديدة عليه قد حلت الكثير من تساؤلاته الملْحاحة والتي كانت تطنُّ في رأسه بلا انقطاع، كان في صراعٍ أبدي مع الزمن: «يجب أن أصل إلى الحقيقة في أسرع وقتٍ ممكن». أيامه، أحلامه وأفكاره الجديدة كلها لاقت طريقها إلى الدفتر الأخضر، في حلّه و ترحاله، في يقظته ومنامه و الدفتر معه! حتى أن أصحابه الجدد كانوا يتعرفون عليه من دفتره الذي يتأبطه دائما، أفكاره كانت مبدأية وعصرية، لكنه لم يكن يتمكن من إيصالها بالشكل المطلوب إلى محيطيه: «أرجو أن تفهموني، أنا أخاف الدم كثيراً، ففي حياتي كلها لم أذبح دجاجة واحدة قط! ومع ذلك فأنا مستعد لكي أذبح الدنيا كلها من أجل فك القيود عن شمس الحقيقة. نورها الذي سيزيل الظلام و الستائر القاتمة عن الحقيقة، الغيلان لا تريد أن تشع الشمس ضيائها الباهر على صفحة الأرض لكي لا يرى أحدٌ أجسادهم ووجوههم القبيحة و قرونهم الناطحة لقبة السماء».

كان يصرح لمن حوله بكل ما يختلج روحه وفكره وتاريخه من الصفحات البيض والسود على السواء، أفكاره كانت صريحة للغاية حتى ولو كانت خاطئة أو ناقصة، يكره كثيراً أن يكون بطلاً في الكلام وطول اللسان فحسب، كان يريد أن يثبت كلامه بالعمل، كل سانحة أو فرصة قد يثبت فيها نفسه كان يبادر إليها بلا تردد: «الفن و الثقافة ليست في طريقة الأكل أو الشرب أو الكلام... ولو كانت كذلك لكانت الدجاجة من أعظم الفنانات.»

* * *

الطويل الذي يخيّل للمرء وكأنه وصل إلى عنان السماء مخترقاً الغيوم الداكنة. أسمرٌ، شعره مجعد: «أعرف بأنني لستُ جميلا كما يجب؛ وهذا لا يقلقني وأنا مرتاح لذلك، فمفهومي للجمال و الوسامة مختلف».

كان وسيماً بروحه وقلبه الطاهر وأفكاره النيّرة ومبدأيته العظيمة.

دفتره تعرّف على الكثير من الكلمات الجديدة و الغريبة (فلسفة، ثورة، حرب، سياسة، تصفية... وأشعارٌ عن النار و الوطن وقدسية التراب...).

مرت الأيام، صاحبنا يكبر والدفتر يكبر معه، كليهما ينتظران أمراً ما... الذين كانوا له بالمرصاد قبل سنين يعيدون كرّتهم من جديد، ينوون أن يخلعوه مع رفاقه من جذورهم ويطفؤوا أنوار الحقيقة في عقولهم وضمائرهم، قائلين: (إنه نورٌ يؤذي عيوننا، يجب تعتيمه و إخماده بأي ثمن).

- «ها قد حانت الفرصة لكي أنتقم من الزبانية وتجار الدماء البشرية و سأحمي الطفولة البريئة... حانت الفرصة لكي أثبت للجميع

بأن متأبط الدفتر الأخضر بمقدوره حمل الكلاشينكوف والرمانات وأن يحارب ضد الزبانية والكلاب المسعورة».

و كان لنا الخريف بهوائه البارد ونجومه الخجولة المتحجبة وراء خمارها الغيمي. و على الأرض كانت القوافل تستعد للمسيرة الطقوسية باتجاه قلاع الحرية العاتية... راح يواسي دفتره و يناجيه: « لا بدّ أن أتركك هاهنا أيها الدفتر العزيز، أبقى هنا ريثما أعود إليك. إن لم أعد فإنك توأمي الحقيقي، حاوي أسراري و رسالتي الإنسانية، عندها يمكنك الصراخ بأعلى صوتك، حتى تتحطم جدران الصمت الأزلية، وتزول أغشية الكرى عن أعينهم.»

«لا تقف ساكتا فسوف تكون لسان حالي وصدى صرختي وناشر ما خطته يراعي، سوف أخبئك هنا، لكي تتبارك برائحة تراب الوطن الزكية، ترقد حينا على صخورها المقدسة». لأول مرة في حياته يحدث فاصلٌ زماني و مكاني بينه و بين رفيق دربه الدائم-الدفتر الأخضر.

أسدل الليل سدوله على العالم، النجوم تراقب بوجل و ارتباكٍ عذري مصائر أبطالها الصاعدين نحو المغارة، كي يحطموا بعضاً من السلاسل التي تقّيد الشمس.

كان صاحبنا، بحكم رتبته، في المقدمة، قال له أحد رفاقه: «مازلتَ طري العودِ، أرجو أن تتراجع قليلاً كي لا تصاب بأذى...»

- «كلا! يجب أن أحقق حلمي وأصل إلى القمة، بالسلاح و اليراع، نستطيع أن نحطم القيود و نحرر الشمس من أيدي الزبانية الغلاظ». كما ربان السفينة! يكون أول من يصعد على متنها وآخر من يترجل عنها، وكذلك صاحبنا، لا يرضى أن يكون في المؤخرة أثناء الشدائد.

دويٌ وصل إلى عنان السماء الحائرة، شهبٌ و نيازكٌ فولاذية مذنبة بالنار ترسم خطوطاً في الفضاء، أصوات صواعق و رعود تزلزل الأرض و تنفطر السماء، تتفجر البراكين الخامدة منذ الأزل في الأعماق الغائرة، كان الموت هناك سلطاناً نشواناً بلا منافس.

بكل هدوء و بلمحة عين سقط على الأرض، تمدد على الثرى المصخرة. فبدأت ينابيع النفط الأحمر تتدفق بغزارة من صدره الواسع، وسع سهول بلاده، كأنه الجسر الواصل بين دجلة و الفرات الرابض على ذرى جبال إلآهية مقدسة، دمه الزكي اختلط مع أديم الخليقة الأولى، قد تنبت منها وردة أرجوان تكون مرتعاً لتحليقات البلابل و تغريداته.

- «وأخيراً... ها قد وصلت إلى القمة، قمة الحقيقة. إنها هنا في كياني، ليست بعيدة ابداً. إنها معنا دائماً، لا تذهبوا شرقاً و لا غرباً؛ فإن كنتم تبحثون عنيّ فأنا موجودٌ فيكم! ألد معكم، أتغذى بكم و أنمو بأكسير حياتكم. فانا أنتم و أنتم أنا.». و أغمض عينيه اللتان كانتا تنضان بالأمل و الراحة إلى الأبد.

هزات عنيفة أحدثها الدفتر، خرج من جدثه وهو يبكي بحرقة وألم يعجز قلمي عن وصفه، أيامٌ متتالية والدفتر يذرف الدموع الحمراء، الكلمات أمست ناراً و بركانا، والدموع باتت ينابيع عظيمة تتدفق منها الأنهار الهادرة، أمست كلها كوثراً رقراقاً لكل العشاق و الباحثين عن الحقيقة.

الحلم

أدرك بأنه قد ارتكب خطأً كبيراً عندما فرّ هارباً إلى البيت، حيث عاد من جديد إلى بلاد الخوف والرعب، إلى الارض التي تأكل أبناءها و ترمي عظامهم للكلاب الجائعة! لكن الذي حدث قد حدث وعليه أن يبحث عن بيته وأمه...

* * *

يسود العالم جو من العتمة والضباب البارد، يهرب، يحاول أن يختبئ بين حقول القطن و خلف أكوام القش... يجري هُنا و هناك هارباً، لكن حركته ثقيلة جداً ولا يستطيع أن يتقدم قيد أنملة! كان يتنفس بصعوبة بالغة ويشعر بثقلٍ عظيم يربض على جسده، وكأنه مربوطٌ إلى صخور غير مرئية! الجندرمة والشرطة كانوا يطاردونه ليلقوا القبض عليه ويرسلوه الى السجن، و هو يزحف على بطنه كالتمساح. كان يحاول أن يصرخ بأعلى صوته حتى يزيل الثقل الذي يربض على صدره و ينفث عن روحه الإختناق والضيق؛ لكن لا فائدة. « كم أنا احمق! لِمُ هربت و عدتُ إلى هنا و أزج بنفسي في هذه المخاطر؟ سيلقون بي في غياهب سجونهم النتنة! آه كم أنا احمق». كان الجنود الذين يشبهون الزبانية الغلاظ يقتربون من المكان الذي يختبئ به، كلما اقتربوا منه ازداد الثقل ضغطاً عليه و الصخور تضيق الخناق: « يجب أن أفعل شيئاً، لن أسلّم نفسي لهم، لن أستسلم أبدا!».

يلمح رشاشاً بالقرب منه، تعرف فوراً على البندقية، تعجب و احتار في أمرها. فقد كانت البندقية التي تركها خلفه هناك، في

الجبال؛ لم يبالي للامر، وكأنه هو الذي أحضرها معه، فهل كانت معه طيلة الوقت؟ من يبالي. أحد الجنود قد أمسى قاب قوسين منه، سدد بندقيته إلى صدر الجندي وضغط بأصعبه على الزناد، منتظراً سيلاً من الرصاص وصوتاً هادراً... لكن الرشاش كان يبصق الطلقات بالقرب منه والجندي لم يقع على الأرض، لأن الطلقات كانت تسقط على الأرض بعد خروجها من فوهة البندقية مباشرة! كان يغلي غضباً و حنقاً على هذا السلاح اللعين، فيصبح كبركانٍ هائج لا يجد منفذاً لاطلاق الحمم الملتهبة. جسده يصبح كقطعة خشب قاسية تئن تحت الصخور، وصوته يصبح في خبر كان، فيحس بأنه سينفجر أو يموت! قفز من النوم متنفساً الصعداء: «اللعنة... اللعنة على هذه الرؤى المزعجة».

* * *

ارتدى معطفه وخرج من المهجع حيث كان الشفق الوليد قد انبثق لتوه و الجبال البعيدة تبدو كلوحة متمِمة للحلم المزعج الذي يراه منذ سنة كل ليلة تقريباً، مما جعله يشعر بالكآبة والحزن في صحوته. حاول مراراً أن يفاتح رفاقه القدامى بحلمه المزعج هذا؛ لكنه كان يتراجع عن ذلك ويبتلع كلامه بلا رغبة. كان يخشى أن يسخروا منه او أن يوجهوا اليه كلمات لا تروق له كـ «*هذه نتيجة الكتب التي تقرأها ... لقد أصبحتَ تتوهم الكثير من الأمور يا آريوس...*». رغم أنه تخلص من سجون العدو قبل مدة إلا إنه كان يمر بفترة عصيبة جداً يسودها القلق و التوتر و شد الأعصاب والتوجس و الريبة التي سببت له عقدة متمثلة في هذا الحلم. صحيحٌ بأنه قد تخلص من السجن و فرّ بعيداً إلا ان السجن قد بات في داخله، متذكراً كلام السجين الذي كان

يشاركه نفس الزنزانة « أن نكون داخل السجن فهو أمر يسير بالمقارنة مع أن يكون السجن في داخلنا، لن تكون سعيداً أو حراً طالما تحمل سجنك في داخلك».

مشى بحذر شديد لكي لا يتزحلق على المرج و توجه نحو الوجاق كي يوقد ناراً يؤنس بها روحه، عساها تنسيه الحلم الذي يغزوه حتى في اليقظة. كانت ألسنة اللهب تتراقص أمام عينيه، فتتداخل الألوان النارية الحادة في رقصة طقوسية تثير في النفس شتى العواطف-النارية.

أصبحت ألسنة اللهب أسواطاً عزرائيلية، و طقطقة إحتراق الحطب باتت أنين المعذبين والسجناء الخارجين من الحجرة التي لم يدخلها الرب حتى الآن (الحمار يصبح إنساناً والإنسان حمارا!). بدأ يشعر بلسعات السوط على وجهه وظهره. و راحت الدموع الحارة تنهمر من عينيه المصوبتين على اللوحة النارية الملونة. أيقظته صوت الجروة الصغيرة (طانسو) من حلمه التعذيبي؛ كانت الجروة الصغيرة تحاول أن تخبره عن جوعها، مستخدمةً كل الوسائل الكلبية اللطيفة، أخرج قطعة من الجبن وأعطاها لـ(تانسو) التي فرحت لهذه الوجبة الصباحية الدسمة.

راح يرتشف الشاي طلبا للدفء والراحة، فقد كان عليه أن ينتظر شروق الشمس حتى يقوم بتركيب آلة التشحين(الطاقة الشمسية) على البطارية التي يستخدمها في تشغيل جهاز اللاسلكي، فهو مسؤول الإرسال في هذه المنطقة، فربما الشيء الوحيد الذي استفادهُ من العدو هو تعلمه استخدام أجهزة المراسلة والتنصت...

- صباح الخير هفال آريوس.

- صباح الخير... تفضل لشرب الشاي.

- هل هو ساخن؟

- تعال ولا تستفسر كثيراً يا رجل.

- سوف آتي حالاً.

- لكن انتبه حتى لا تنزلق على المرج.

وقبل أن ينهي كلامه التحذيري حتى وقع هفال خليل على ظهره، فضحك آريوس منه:

- أووه... كانت قفزة رائعة يا هفال... برافو! لا بأس! هلمّ إلى الشاي يارفيقي.

- هل تفحصت المنطقة جيداً؟

- نعم، ككل مرة دائماً،لا شيء، ثم لاشيء سوى لا شيء!

- فقط أريد معرفة الدرب الذي يسلكه هؤلاء الملاعين. وكأنهم يطيرون يا رجل!

- بل إنهم لا يتجولون بتاتاً.

- لا أعتقد ذلك، مستحيل!

- الحادثة الأخيرة جعلتهم يجمدون تحركاتهم هذه الأيام، فهم لا يودون الموت كما تعلم. ومن البلاهة أن نبقى هنا ننتظرهم، فها قد مر أكثر من شهر، دون أن نحصل على أي شيء يذكر. فأنا أرى بقائنا هنا بلا فائدة... أنا لا أحب ان أبقى عاطلاً يا هفال خليل، هل تستوعب موقفي؟

- وأنا من رأيك يا آريوس، لكن القيادة تأمرنا بالبقاء هنا، يأملون

الإنفتاح في المنطقة من جديد ولذلك فهم لا يقبلون إقتراحنا بالخروج من هنا...

- أنا لا أرى بصيص أمل في عودة الأمور كما السابق، فالأمر مختلف تماماً، ويجب أن نعيد الإقتراح من جديد، فربما يستوعبون موقفنا هذه المرة. لم أعد أتحمل الوقوف هنا بلا فائدة. أتمنى أن يرسلوني إلى (كاروخ) أو إلى أي مكان آخر، فسوف يكون أفضل من هنا.

- تستطيع أن تتكلم مع القيادة باللاسلكي هذا اليوم، ونرى ماذا يكون ردهم.

- فكرة جيدة يا هفال خليل.

* * *

كانت أصابعه تتحرك بمهارة فائقة على أزرار جهاز الإرسال (اللاسلكي) محاولاً التقاط مراسلات العدو وتقاريرهم اليومية بين المئات من القنوات المتداخلة والأصوات المختلفة كان يبحث عن صوتٍ خاص، اجتاز القناة التي كان يبحث عنها... فعاد فوراً كي يثبت ابرة الجهاز عليه، كان المذيع يكيل سيولا جارفة من أبذأ وأقذر الكلمات لرفاقه قائلاً: «... قامت قواتنا الشجاعة بالنيل من عشرات الإرهابيين وكذلك طردتهم من الكثير من المعسكرات والنقاط الهامة... و الإرهابيون يولون الأدبار فارين من أمام قواتنا الباسلة...». هذا الكلام جعل آريوس يشتاط غيظاً وغضباً على هؤلاء لكنه تمالك نفسه حتى لا ينطق بما لا يحمد عقباه وتجعله في موقف لا يحسد عليه عند الرفاق الآخرين؛ فقال بصوت خافت: « تباً لكم» وضغط بإصبعه على

الزر بعصبية منتقلاً إلى القناة العامة-الخاصة بالتقرير اليومي لقواتهم. راح يستمع إلى تقارير المناطق والسرايا الواقعة على جبهة الحرب المشتعلة. في الساعة العاشرة تماماً سمع صوت مقر القيادة ينادي عليه:

- كاروان، كاروان، كاروان...

- نعم هنا كاروان... من ينادي؟

- معك كاركر. احتراماتي يا كاروان...

- تحياتي واحتراماتي كاركر...

- هل من شيء جديد ياكاروان؟

- لايوجد شيء ما.

- كيف العمل؟

- كالبارحة تماماً.

- هل تقولون شيئاً؟

توقف آريوس قليلاً دون أن يجيب على سؤال الطرف المقابل، أشارت له هفالة دلباك (قائدة السرية) بأن يستفسر عن أوضاع الجبهة.

- هل تستطيعون أن تدلوا لنا بآخر الأخبار من الجبهة الأمامية يا كاركر؟

- لا نستطيع الآن القيام بذلك. يجب أن ترسلوا لنا جهاز الإرسال الذي بحوزتكم، إذا كان بمقدوركم إيصاله إلينا اليوم، فسوف يكون جيداً.

- نعم، سوف نتكفل بالأمر.

- هذا جيد هل من شيء آخر؟

- كلا! مع تحياتي لكم جميعاً.

- و لكم أيضاً.

كان يتوجب عليهم إيصال جهاز الإرسال إلى مقر قيادة المنطقة بسرعة، لذا، اقترح آريوس بأن يذهب هو في هذه المهمة، كان ينوي مفاتحة الإدارة باقتراحه للالتحاق بجبهة القتال، و يشاركه عدد من الرفاق رأيه في الخروج من هذه المنطقة. و فرحوا عندما تكفل آريوس بهذه المهمة، و ألحّوا عليه الإقتراح بصدد الإلتحاق بالجبهة.

(وأنت ايضاً تقدم. تقدم ولا يحدونك عن الدرب أي شيء، لا المطر ولا تعب الطريق ولا العيون التي تقدح شرراً ولا الأفواه التي تنفث ناراً. وأنت أيضاً تقدم نحو ماتصبو إليه، لا تبالي بالوحول المتكومة على نعليك ولا تحذيرات الأولياء الهرمين. لا تبالي حتى بنفسك الرافضة للرضوخ لإرادتك السامية. إغسل روحك وجسدك بالنار اللاهبة وتطهر بالأديم البارد.).

* * *

من جديد تعاود رؤياه زيارتها الثقيلة، فتزعجه وتضيق عليه الخناق، الرشاش لا ينجده ولا قدماه المربوطتان بجبالٍ غير مرئية، في هذه المرة كان عدد جنود العدو كثيراً وأسلحتهم كانت مختلفة، تثير الرعب في نفسه، فيشتم ويلوم حظه العاثر وحماقته التي وسوست له بالهروب، كان يصرخ ويصرخ، دون خروج لأي صوتٍ من ثغره الفاغر!

و استيقظ من حلمه المزعج. صوت المدافع الثقيلة والرشاشات كانت تصل إلى الوادي الذي يقبع فيه مقر القيادة. في جوٍ ماطرٍ و راعد اندلعت من جديد نار الحرب الطاحنة، إنها النار التي تأكل كل شيء وتطهر الأرض وتلوثها، تقتل أرواحاً وتطهر أخرى، تسرّ قلوباً وتضرّ أخرى.

(وأنت أيضاً طّهر روحك الحزينة بهذه النار. أقتل مقتلك الذي يقبض روحك كل لحظة. اسمِعهم صوتك الغاص في سباتٍ عاجز. وأنت أيضاً كن إنساناً وناراً وتراب!)

* * *

انبثقت الأم الحنونة من خلف الستائر الغيمية الراكدة (روج باش) كانت كلمتها اللطيفة التي رمتنا مع إبتساماتها العذبة. ومعها جاءت الأخبار التي انفرجت معها أساريرنا العابسة. أعزائنا كانوا قد حققوا انتصارات خاطفة على قوات العدو المعتدي.

عشرات الأسرى و القتلى وعدد لا يحصى من الأسلحة والذخائر و المعدات، حماسة هفال صالح وهو يدلي بالأخبار السارة كانت تثير فينا تيارات لذيذة من القشعريرة الباردة، شيء ما كان يغلي كالمرجل في فؤاد آريوس، باحثاً عن مخرج لكي يتنفس، طاقة هائلة يجب أن تخرج وإلا سوف تنفجر داخله، فتكون العاقبة الوخيمة التي لا تحمد عقباه.

في ساعات الظهيرة جلس آريوس مع صبري طاش (المسؤول عن المقر) و فاتحه في موضوع الجبهة:

- نقترح أن نذهب إلى الجبهة الأمامية يا هفال (بصوتٍ عال) حتى يسمع.

- ماذا قلت؟

- قلتُ نريد أن نلتحق بالسرايا المحاربة في الجبهة.

- كلا كلا... من الأفضل أن تبقوا في مكانكم.

- وماذا سنفعل في مكاننا؟ لاعمل ولا شيء. في الجبهة سوف نتمكن من دعم الرفاق.

- وهل الحرب تتوقف عليكم؟ يوجد الكثير من السرايا والكتائب المتخندقة في الجبهة.

- أرجو أن تتفهموا موقفنا يا هفال، لم أعد أتحمل البقاء هناك بلا عمل؛ يجب أن تتفهموني! (هذه المرة تظاهر بعدم السماع وتجاهل جملة آريوس تماماً).

- عندما تذهب إلى الفصيلة خذّ معك رسالة إلى هفالة دلباك (معنى اسمها القلب الطاهر).

- إذاً، الوداع.

أتحسبون أن بمقدوركم إيقاف النار الهائجة بهذه الجدران الخشبية الهشة؟ هل تتحملون انفجار البركان الذي يغلي في جوفي، قد ينفجر في أية لحظة. ما حقكم في أن تحرمونني وتمنعونني من خنق الذين يخنقونني كل ليلة؟

(اصعد معي نحو القمة، لا تتهاون لاتتخاذل، لا يحدونك وابلٌ ولا صواعق الآلهة الساخرة، لاعتمة الليل ولا الأشواك التي تأكل جسدك البارد.)

* * *

حلّ آريوس محل هفال صالح، راح يدبُّ في رفاقه الحماسة، كانوا قد تحلّقوا حوله وهو يسرد أخبار العمليات والانتصارات، جعلهم أسلوبه الخطابي وكأنهم يجلسون على الجمر، كانوا أقدم منه بين صفوف الثورة، لكنه استطاع أن يعرف كيف يؤثر فيهم ويقنعهم بفكرته أو بمغامرته التي ينوي القيام بها!

- ولماذا لم تقترح لإدارة المنطقة بأن يرسلوننا إلى الجبهة؟ (سأله هفال آمد).

- أكثرية الإدارة في الجبهة والباقي لم يكن يسمعني (أنتم تعرفونه!)

- وما العمل؟

- لقد اتخذتُ قراري!

- أيّ قرار؟!

- غداً، سوف انطلق إلى الجبهة، و ليكن مايكون. ساتحمل المسؤولية.

- هل جننت يا آريوس؟

- كلا... بل أنا في كامل وعيي. بل يجب أن تأتوا أنتم أيضاً معي!

لزموا الصمت وراحوا يحدقون النظر في بعضهم البعض. لكن آريوس كان يريد وضعهم أمام الأمر الواقع و جعلهم ينطقون بما يفكرون به و يؤمنون بصحته، لذا كرّر عليهم السؤال:

- قولوا لي، ماهي الفائدة التي تُجنى من بقاءنا هنا؟

لم يجاوب أحد على سؤاله المحرج. ولكن إصراره على سلخ الإعتراف منهم سلخاً، جعلهم يجاوبون على مضض!

- لا فائدة!

- برافو. هذا ما أريدكم التصريح به، إذاً ما الذي يجبرنا على البقاء هنا؟

- هذا من شأن التنظيم...

- ها! ليس من مبادئ التنظيم بقاء عدد من الكوادر بلا عمل ولا إنتاج في أية ظروف كانت. فالثورة تعني العمل، الحركة، الابداع و ملء الفراغ.. نعم الثورة هي ملء الفراغ، لا يمكن التفكير بثوار يقعدون بلا عمل... ثم أنتم تعرفون الأوضاع المحرجة.

تشجّع هفال شيار، الذي تأثر بكلمات آريوس وبراهينه الدامغة و أنبرى قائلاً:

- وأنا من رأيك يا هفال آريوس... مستعدٌ كي أذهب معك غداً.

- أحسنت ياعزيزي.

تشجع الرفاق الآخرون في الإنضمام إلى رأي آريوس، هذه الرغبة كانت تدغدغهم جميعاً، لكنهم كانوا يتوجسون الإفصاح عن رغبتهم هذه وأتى آريوس كي يفجّر تلك الرغبة الناضجة في أفئدتهم.

أجمعوا جميعاً على الالتحاق بجبهة القتال ما عدا رفيقين كانا قد رجعا من الجبهة قبل إندلاع الحرب، دون أن يذكرا الاسباب. أراد هفال كاركر بأن يعرف رأيهما في المغامرة.

- ما رأيكم يا هفال (فولقان و كاوا) بفكرتنا هذه، هل ستذهبان معنا؟

جفل كليهما و لم يعرفا بماذا يجيبان، أراد فولقان إنقاذ الموقف قائلاً:

- أنا لا أقدم على شيء ضد التنظيم. أعتقد بأن هفال كاوا من رأيي... أليس كذلك يا كاوا؟

- نعم...

* * *

(سرّ إلى الأمام واصعد القمة الفاصلة بين الأرض التي شهدتْ خمود بركانك الذي لم يخمد إلا هنا. فالأرض التي أخمدت بركان روحك، قد شهدت مولد ثورتك الحقيقية الأولى، ثورتك ضد الهامشية والتقوقع ضمن القوقعة التي صنعتها بيديك كي تخنق نفسك في سجن نفسك الخانق. سرّ، لا تلتفت، لا يغرُّك راحةٌ ولا هناءٌ جسدي في هذه الأرض التي تودعها بظهرك ورأسك المرفوع).

ما إن وصل آريوس مع رفقه إلى القمة، حتى رفع بندقيته وجهها نحو السماء وأطلق طلقة من بندقيته المسرورة أكثر منه.

- وحتى المثقفون مجانين أيضاً! (قالها مظلوم)

التفت إليه آريوس وقال:

- وهل تعتقد بأن كل المثقفون جبناء وثرثارون يا هفال مظلوم؟

- أعتقد ذلك، ولكن قد يكون هنالك استثناء.

- أنت لم ترى بعد جنون المثقّفون...!(ضاحكاً)

اقترب هفال كاركر من آريوس وأخذه بالأحضان وهو يقهقه ضاحكاً، فرِحاً برفيقه غريب الأطوار.

رغم كل تحذيرات هفالة دلباك و هفال اسماعيل من مغبّة الإقدام على مثل هذه الخطوة التي قد تؤدي بهم إلى التعرض للتحقيق

أو كتابة تقرير نقد ذاتي. إلا إنهم ركبوا العناد ولم يبالوا للتحذيرات الملحاحة لهفال اسماعيل قائلين له:

- نتحمّل كل شيء، نرجو المعذرة، لكن يجب أن تتفهّم موقفنا، لقد مللنا من البطالة و القعود هنا بلا فائدة.

- عاودوا اقتراحكم للإدارة العليا. فقد يقبلون أقتراحكم و يلبوا رغبتكم في الالتحاق بالجبهة... ردّ عليه آريوس قائلاً:

- لو كان أحد القادة العسكريين في المقر كنا سنذهب إليه؛ وللأسف إن صبري طاش لا يفهم من العسكرية و نفسية العسكر، لذا فهو لا يقبل اقتراحنا ونعتقد بإنه لا فائدة تُرجى من تجديدنا الاقتراح له.

- أنتم مخطئين! لا فرق بين القادة...

- لا فرق بينهم ولكن العسكري يستوعب ويعي ما يحسُّ به العسكر تماماً أما الآخرون وخاصةً هفال طاش فهو بعيد جداً عن استيعاب مشاعر المقاتلين؛ لذا سوف نذهب إلى الجبهة ونجدد اقتراحنا لقادة الجبهة الآخرين.

- لقد حذرّتكم و القرار لكم. و أتمنى لكم التوفيق!

قالت لهم هفالة دلباك وهي تودعهم:

- حذاريّ! لقد أقدمتم على أمرٍ خطيرٍ جداً وقد تقعون في وضعٍ لا تحسدون عليه. حاولوا قدر الإمكان إستمالة الرفاق هناك كي لا تتعرضوا للجزاء أو المسائلة و إلى ما هنالك من أحكام. انتم تعرفون!

* * *

خاطب آريوس رفاقه قائلاً:

- لدي أوراق لأجل كتابة التقارير يا رفاق (ضاحكاً).

- ألم تترك الدفاتر والكتب يا آريوس؟

- وهل فقدتُ عقلي حتى أتركها يا هفال هلمت؟ يوجد بحوزتي كتاب يكفيني شهراً كامل!

- و ما الذي ستفعله بالكتاب في لجّة الحرب الضروس؟

- سأجد الفرص كي أطالع الكتاب بين الحين و الآخر...

كان هلمت هو الوحيد الذي يعرف الطريق المؤدي إلى الجبهة (كاني جنكي) من بين الرفاق. لذا حذّروه مراراً من عدم المرور بأماكن يُحتمل بتواجد الرفاق فيه، حتى لا ينحرجوا أمامهم، ومع ذلك فإنهم التقوا بالعديد من الرفاق والرفيقات في الطريق وكانوا دائماً يلفقون قصة طريفة عن سبب توجههم إلى (كاني جنكي). فمرة ادّعوا بإنهم سوف يقومون بعمليات تنظيف المناطق الجديدة من الألغام، ومرة أخرى أوجدوا لأنفسهم مهنة الدعاية و التنظيم في القرى الجديدة! ولحسن الحظ بأن معظم الرفاق كانوا يصدقونهم ولم تساورهم الشكوك في هذه المجموعة- المنظمة جيداً بأنهم هاربون من منطقتهم إلى الجبهة بدون إذن الإدارة.

بعد مسيرة طويلة و متعبة، كان التعب والبرد والجوع قد أخذ منهم مأخذاً لا يُستهان به لاحت لهم مناطق الجبهة الشاسعة في محيط (كاني جنكى) بقممها الحادة والغابات الكثيفة والقرى المنتشرة في الجهات المختلفة.

كانت الشمس الخريفية الصفراء تشعّ على كتل الثلج المنتصبة كالجسور الرومانية في القمم العالية، حيث تذوب رويداً رويداً وينساب

النهر بين الصخور السود والشجيرات الضامرة... هذه الطبيعة تلد من موتها الأزلي ضمن صيرورة أبدية خالدة، إنه القانون الذي يهيمن على مجرى الكون بأكمله. و أنتم أيضاً، قد تحاولون الفرار من هذه الصيرورة - التي لا مفر منها- كي تضعوا لأنفسكم النواميس التي تشاؤونها؛ لكن اعلموا بأن كل شيء سيكون لصالح قانون الصيرورة الكونية الكبرى. فإن ظفرتم بمعركة أو ثلاث، فانكم ستخسرون الحرب لا محال!

(أهبطوا الجبل يا من أبيتم إلا الحرب لأجل الحرية. وجهكم للشمس الساطعة، النسمات الغربية تلفح وجوهكم المرهقة والخائفة والفرحة في الوقت نفسه. اهبطوا بعد الصعود المرهق، سوف تصعدون من جديد و من بعدها الهبوط وهكذا دواليك!)

* * *

كانت معدتهم خاوية إلا من الجوع ومياه الثلج الباردة.

في الطريق مروا بمحاذاة بستانٍ مهجور، فهرعوا إليه كي يسدوا رمقهم بحباتٍ من البندورة والقثاء. كانوا منهكين بالتِهَام الخضار، إذ بصوت زاعق ومصفّر يصعقهم.

وقعت قذيقة كاتيوشا بالقرب منهم، مما أدخلهم في حالة من الخوف والفزع، فولّوا هاربين إلى صخرة كبيرة كي يحتموا بها.

- إنها المراسيم التي يستقبلوننا بها.

- سوف نجعلهم يندمون على ذلك، كيف شعروا بنا يا ترى؟

- ألا ترى أن الدرب الذي نسلكه يقع في مواجهة العدو تماما؟

تتالت القذائف المسددة علينا فترة من الزمن، وما أن ملّوا اللعب بالكاتيوشا معنا، و سكنت سبطاناتهم، تابعنا مسيرنا من جديد.

قلوبهم كانت تنبض بعواطف شتى، كلما بقي قليلٌ من الطريق ازدادت نبضات قلوبهم بالخفقان، الخوف من المجهول، لا سيما إن الإدارة قد تحاسبهم على تصرفهم الفوضوي هذا... لكن مهما حصل فيجب أن يشاركوا في الحرب و محاسبة العدو و الثأر منه وبعدها ليكن ما يكون. كانوا يفضلون تقريعات لاذعة من قيادة الجبهة على البقاء بلا هدف ولا إنتاج في الفصائل الحدودية.

لمحوا من بعيد خيال هفال سنان سور (قائد جبهة كاني جنكى) وهو ينظر إلى القادمين الغرباء. كانوا مستطرقين و مترددين وهم يقتربون من شبح هفال سنان سور المنهمك بالحديث باللاسلكي مع القوات المجاورة، استغرب عندما تعرّف على هذه المجموعة-التي كان من المفترض أن تكون في الطرف الآخر؛ في البداية انشرح عن إبتسامة احتفالية بهم، فبادرهم بالتحية والاستفسار عن أحوالهم...

- كيف حالكم ايها الاعزاء، خيراً أتيتم؟

- بخير، نشكركم، كيف حالكم أنتم يا هفال؟(بشكل جماعي).

- بخير. الأوضاع على ما يرام. كان من المفترض أن تكونوا في الحدود، ماذا تفعلون هنا؟(مستغرباً)

في البداية لم يبادر أحد بالإجابة على سؤاله، بعدها اضطر هفال خليل بالإجابة...

- لقد أتينا للانضمام إلى الحملة و...

- من أرسلكم إلى هنا؟

لم يجاوب هفال خليل وكان يظهر من سماته بإنه يستغيث الرفاق لنجدته من موقفه الحرج، فوجد آريوس أنه لا بد من التدخل في الأمر.

- لم يرسلنا أحد.

- لم يرسلكم أحد... وكيف ذلك؟

- لقد أتينا بدون اذن إلى هنا.

أندهش هفال سنان و احتار في أمر هؤلاء، تغيّرت ملامح وجهه و احمرت عيناه. (كنتَ تتوقع تقريعاً خشناً منه، أو أمراً بعودتكم من حيث أتيتم أو حتى أي جزاء انضباطي... هكذا كنت تتوقعه؛ لأن الحياة التي عشتها كانت دائما على المنوال المتسلط: المدراء، المدرسين، الموجهين، الشرطة، المخابرات وحتى آذن المدرسة(الفرّاش) كانوا يشتاطون حنقاً وغضباً لأقل خطأ أو سهو ترتكبه. لكن فراستك خيبت ظنك، فلم يكن سنان مثل المدراء والشرطة الذين كانوا يعنفونك لأتفه الأسباب). ابتسم بشكلٍ واضح، مما أعادت تلك البسمة الروح والدماء باشرت بالجريان في عروقهم المنتصبة والجامدة قبل لحظات. بادرهم قائلاً:

- أهكذا تكونون عساكراً يا رفاق، تأتون دون علم و دون اذن عسكري من القيادة إلى هنا؟ ما هذه الموضة الجديدة للعساكر؟ هل أسلحتكم وذخيرتكم كاملة؟

- نعم هفال! كل شيء جاهز...

- إذاً هيا اتبعوني يا عساكر(بلهجة مازحة)، لقد أخبرتني الرفيقة دلباك بأن كاوا و فولقان قد هربا البارحة و استسلما للعدو.

كان هفال سنان فخوراً بنا وبإقدامنا الجسور على الهروب إلى ساحات الوغى في قرارة نفسه و لكنه لم يفاتحنا بذلك. فقد كنا قد ارتكبنا خرقاً للإنضباط العسكري بالرغم أن هدفنا كان نبيلاً، بعكس بعض الشخصيات التي ولّت الأدبار ما إن اندلعت الحرب، خانونا في أصعب الظروف وأقساها، انعدم الإيمان في أفئدتهم وأرتموا في وحول الأعداء النتنة.

كانت قوات الكريلا قد تقدمت كالصاعقة، غاصة في جبهة العدو كالإسفين، الكل كانوا في حركة دؤوبة على الطرق والدروب، فمنهم من كان يعود من العمليات، ومنهم من كان يحضّر تجهيزات العملية التي سيقومون بها الليلة والبعض كان يحضّر الغذاء والذخيرة والمواد الطبية. ضمن تلك الجلبة لمحوا بعض الرفاق الذين يعرفوهم و هرولوا نحوهم صارخين:

- انظروا يا رفاق، من القادم، أووو... أهلاً أهلاً. كنتم الناقصين و اكتملت بمجيئكم اللمّة.

تعرفنا على عدد كبير من الرفاق القدامى الذين ابتهجوا لمجيئنا غير المتوقع. لكننا جئنا! وها نحن بينهم وهم يستعدون لعملية هجومية مرتقبة، أردنا أن نشاركهم لعبتهم؛ لكن هفال سنان رفض مشاركتنا في هذه العملية أياهم، لأننا كنا متعبين ويجب أن نستريح الليلة.

أسدل الليل ستار العتمة على الكون، فافسح المجال لقوات الكريلا بالتوجه نحو الهدف، كان العدو قد قام بتجهيزات مكثفة للقيام بضربة مباغتة علينا وكان يجب أن تفاجئهم قواتنا قبل خروجهم من معسكراتهم القريبة.

* * *

ضبابٌ شفاف يغلّف المكان بعبائته الباردة والرطبة، وأنوار القرية البعيدة كانت تتلألأ عبر الستار المبهم. يبدو أن آريوس قد أخطأ الطريق وضلّ في هذا السهل النائي؛ كان وحيداً، يستغرب وجوده في هذا المكان الغريب و يحاول الدنو من الأضواء البعيدة التي تتراءى له كعين الغيلان، الأرض المحروثة للتو كانت تصعّب مسيره المرهق جداً و نباح الكلاب تطرق إلى مسمعه، فتزيده ريبةً وقلقاً من هذا المكان المجهول.

« إنها قريته!»، لكن ما الذي جاء به إلى هنا، كيف ولماذا؟ وكأنه كان يعرف الأجوبة مسبقاً؛ لذا، لم يكترث لهذا الأمر وهمّ بدخولها لولا أشباح الشرطة الغلاظ الذين كانوا ينتظرونه بكبرياء و تعجرف: «هيَّا أَمسِكوهُ حالاً...»

حاول أن يهرب، لكن لم يجد في نفسه القدرة على التحرك، فقد تسمرت قدماه في الارض الرخوة. يغضب جدا ويصل حنقه إلى درجة الإنفجار البركاني، لكنه لا يقدر على الصراخ ولا على الحركة بتاتاً! يحس بأنه سيختنق، يجن أو يموت. كان يشعر برأسه يتفجر تحت راحة طاحونة غير مرئية، وعظامه تتحطم بلا سبب و...

- هفال آريوس. هفال آريوس... قم يا هفال، استيقظ سوف نذهب...

تنفس آريوس الصعداء وراح يفرك عينيه بلا سبب وبقي صامتاً لحظات وبعدها سأل من هفال خليل عن سبب إيقاظه من النوم؛ عندها اقترب هفال دجوار منهما وهو على عجالة من امره:

- هيا يا رفاق، العدو يحاول أن يقوم بالإلتفاف حولنا وقد استولى على العديد من نقاطنا والتلال التي كانت تحت سيطرتنا، رفاقنا في

تراجع تدريجي لأن ذخيرتهم على شَفَا النّفاذ، يجب أن نسرع وإلا... هيا بسرعة سوف ننطلق حالاً.

كنا متعبين جداً ولم نسترح بما فيه الكفاية بعد مسيرة طويلة؛ والآن يجب أن ننطلق إلى مكان لا نعرفه أبداً. كان يجب أن نصعد جبلاً عالياً جداً لكي نصل إلى النقطة المرجوة مع الفجر.

* * *

اصعدوا، اصعدوا نحو القمة، لا يحدونّكم تعبٌ ولا قلّةُ هِمّة. استعجلوا الخُطى الواثقة نحو الهدف. إنهم يستنجدون بنا ويجب أن نستغيثهم. الأرض والسماء كانتا قد أمستا ملعباً للنيازك والرعود الفولاذية والنارية، وأصوات الإنفجارات والمدافع كانت قد مزقت سكون الليل الأبكم. في الجهة الشرقية كانت وحداتنا المهاجمة تحرز تقدما ملموساً في الهجوم المباغت وأما في الجهة الغربية التي كنا نتوجه صوبها، فإن قوات العدو كانت تتقدم وتستولي على أكثر النقاط الحساسة التي تربط بين الجبهات الغربية.

نصر وهزيمة، ظافر و هازم، دم و نار، نار و نار... الأرض كانت تسترحم السماء من هذه الأصوات الرعدية التي يرتجف لها عرش زيوس الجبار. والنار كانت تشتكي النار للنار. وأنتم «اطفئوا النار بالنار».

وأنت يا آريوس، كنت تسر لتلك الأصوات والنيازك الفولاذية؛ فهي كانت تحرق النار المندلعة في روحك الحزينة. وأنت أيضاً كنت تحترق بنارك وهذه النيران الفولاذية كانت المرآة العاكسة لنيران روحك الحزين، وأنت أيضاً اصعد نحو القمة، لا تتهاون لا ترضخ للتعب.

قبل أن تقول لنا الأم الحنونة « *روج باش هفالنو*» فإننا استدركنا رفاقنا المنهكين من الجوع والعطش والتعب. أنقشعت أساريرهم عن ابتسامات حنونة عندما وصلنا إليهم، فقد كانوا قد تراجعوا إلى القمة الاخيرة، والعدو كان يعسكر في القمة المواجهة تماماً. وإذا سقطت هذه القمة أيضاً فان منطقة كاني جنكى سوف تصبح بؤرة الهزيمة والانكسار لقواتنا، فإن القمة الأخيرة كانت الشريان الرئيسي الذي يربط ويسيطر على العديد من الطرق والقرى الاستراتيجية؛ لذلك فان العدو كان يعد العدة للظفر بهذه القمة بأي ثمنٍ كان، وكان يجب أن نعيق هدفه هذا بأي شكل من الأشكال.

فوراً قام هفال خبات بنشر الرفاق على أطراف القمة لكي يحتاطوا لأي طارئ وكذلك طلب من قيادة الجبهة بأن يرسلوا لهم كمية كبيرة من الذخيرة و المواد اللوجستية.

كان العدو يتحرك بطلاقة وكبرياء أجوف في التلة المقابلة لنا، فقد جعلت الإنتصارات التي حققها على عدد من الرفاق - المحرومين من الذخيرة، بأن يصاب بحمى الإنتصار وفقدان الرشد. قمنا بتحضير كل شيء قبل الغروب، كنا ننتظر الساعة المحددة...

- « لقد حصل عدونا على إمدادات كثيرة جداً منذ الصباح، وهو يعد عدته للهجوم علينا ويجب أن نمنعه من القيام بذلك. سوف نريهم فنوننا في الحرب، يجب أن نباغتهم هذه الليلة. النار الكثيفة والروح القتالية الحادة والقاسية كالفولاذ وهو الدواء الشافي لهذا العدو؛ يجب أن تكون رشقات رصاصكم كالوابل المدرار عليهم، سوف نريهم من نحن... لا تهاون ولا تكاسل في الهجوم المباغت. أتمنى لكم النصر والظفر بتلك التلال و الروابي هذه الليلة».

هذه الكلمات النارية دبت الحماس في نفوس الوحدات التي سوف تهاجم العدو ضمن العملية. و محور الهجوم هي مجموعتنا (الهاربة). كان يجب أن ننتصر في هذه المعركة.

كانت العملية تتشكل من جناحين للهجوم يدعمانهما مجموعات المساندة والدفاع العام بالإضافة إلى مجموعات احتياطية أخرى.

الكل أخذ مكانه و انطلقت مجموعات الهجوم للتسلل إلى متاريس واستحكامات العدو بكل خِفة. أحست مجموعة من العدو بخشخشة أقدام الرفاق المهاجمين. فصرخ أحد الجنود من خلف استحكامه:

- من هناك؟ (بصوت عال).

أدرك الرفاق بانهم قد انكشفوا قبل أن يصلوا إلى المكان المحدد لهم و دون أن تكون المجموعات الأخرى قد اخذت تدابيرها للبدء بالهجوم. فكرّ هفال خليل للحظة ان يباغت بالهجوم على ذلك الاستحكام قبل ان ينكشفوا تماماً و الأمر كان فيه الكثير من المخاطرة... لكن في تلك اللحظة حدث ما لم يتوقعوه، فجاء صوت من ورائهم.

- أنا، أنا محمد، لا تخطأ يا سلو...

كان ذلك صوت جندي آخر من جنود العدو في الاستحكام المقابل. لقد أنقذنا ذلك الجندي دون أن يعلم، عندما رد على رفاقه، وهذا ما أنقذنا من مواقف محرجة للغاية، كما ادركنا اننا اصبحنا في المكان المراد مهاجمته. اقترب هفال خليل حتى أمسى على حافة المتراس، أخرج قنبلة و القى بها إلى الاستحكام وبعد عدة ثوان (بووووم) هدر الصوت الصاعق ممتزج بصراخ الاعداء وعويلهم. كانت

قنبلة هفال خليل بمثابة الصفارة المعلنة عن بداية اللعبة، فحذى الرفاق الآخرين حذوه و راحوا يغدقون الرمانات ورشقات النيران على استحكامات العدو المذعور من هذه المباغتة غير المتوقعة، و قاوموا بشكل يائس، لكنهم لم يتمالكوا تحت ضربات الكريلا التي لا ترحم. فقد كانو يضربون بقوة نارية بشكل مكثف من جهتين و تركوا (حسب أوامر القادة) منفذاً لكي يهرب العدو!

الذي قاوم من جنود العدو كانت نهايته سقوطاً بنيراننا، أما الذين تعقّلوا وهربوا- بدون أحذية فانهم فازوا بجلدهم من هذه اللعبة النارية لا يولون لشيء ورائهم...

* * *

كانت كل طلقة تخرج من فوهة بندقيتي تمثل الصرخات الكامنة في جوفي، الصرخات التي كانت تربض على صدري وتخنقني بثقلها الهائل، كل طلقة كانت صفعة عزرائيلية على و جوه كل من عاملوني بفظاظة و وقاحة، كل طلقة كانت تنفيثاً عن الحنق و الغضب و الحزن الكامن في صدري منذ بداية الدهر، انفجار القنابل كان انفجار البراكين الهائجة في روحي التي تغلي منذ سنين، كل طلقة كانت رداً للديون التي في ذمتي من السياط والكرباجات في نظارات مخابرات العدو وأوكارهم القذرة، كل انفجار كان بمثابة صرخة «لا» لم أقدر على نطقها في الماضي، لأجل كل ذلك، كنتُ أطلق بلا توقف. كان يجب أن أحرق النيران التي تمزقني منذ بداية الزمان، بنيران بندقيتي التي لا تخذلنا، بعكس ما تفعل دائما في أحلامي المزعجة. كلما كنت أصرخ من فوهة بندقيتي المحمرة من اللهب، كانت الأثقال التي تربطني تضمحل في الهواء، والجبال الرابضة على صدري المنتفض

كانت تتهرش وتتدثر، كنتُ استشعر الراحة و الأمان في تلابيب رُوحيَ الحزينة. و كأن تلك الطلقات و النيران كانت تخرج من احشائي و ليس من فوهة البندقية الملتهبة.

وانتهت اللعبة و ولى الأعداء هاربين كالأرانب تاركين ورائهم سبعة قتلى وعدد لا يعد من البنادق والذخائر المختلفة و الأحذية و حبات البصل. و كل شيء بات لنا. مناطق شاسعة جداً و نقاط استراتيجية للغاية و العشرات من القرى، بدون أن يصاب أي واحد من رفاقنا بأذى. فور إنتهاء العملية استدركنا صوت هفال جمال فرحاً:

- كيف حال الهجوم يا هفال خبات؟

- لقد انتهت العملية و كل شيء لصالحنا.

- أبارك الأبطال في انتصارهم هذا... من الذي شارك في هذه العملية؟

- مجموعة من سرية الـ... ومجموعة كانت قد هربت من مكانها والتحقت بنا و...

- كيف هربوا، لم أفهم؟

- كانوا بدون عمل ولذلك قرروا الإلتحاق بالجبهة الحربية.

- ممتاز. لا تزعجوهم أبداً، يجب أن يكونوا مرتاحين للغاية. هل فهمتم، لا تزعجوهم.

- نعم يا هفال.

- هل من شيء آخر؟

- كلا...

كانت فرحة الرفاق عظيمة جداً، لا يمكن وصفها بالكلمات الراضخة لقواعد الاملاء و النحو و جماد الورقة و الحبر، و لاسيما مجموعة الهاربين (فقد اشتهرت المجموعة بهذا الاسم) واصبحوا مضرباً للمثل في كل المناطق والسرايا الممتدة على طول الجبهة و عرضها و حتى في الايالات الاخرى.

- «لو كان معي أربعة مجموعات مثل مجموعة الهاربين لكنت حررت الوطن خلال أيام...» هذه الكلمات من الخطاب الذي ألقاه أحد القادة العسكريين والإداريين الكبار في اجتماع عام لاحدى الجبهات.

الفرحة ونشوة الإنتصار كانت تطغى على رفاق آريوس جميعاً؛ لكن احساس آريوس كان مختلفا تماماً، احساس من نوع آخر.

بعد أن انتهت العملية و أصوات الانفجارات والصراخ ما تزال تطن في عقله الباطن، و مناظر الجثث المسجاة على الارض وفي الاستحكامات كانت متجمدة في دمها المهدور. ما أن انتهت العملية حتى أسرعت وحدات الاحتياط إلى القمة التي سيطرنا عليها من أجل حراستها والتعسكر فيها. وهذا ما سمح لنا أن نبحث عن صخرة كي نرتمي إلى حضنها للاستراحة، و الاحتماء من الرياح الخريفية القارسة التي كانت تتسلل إلى عظامنا المتعبة.

استطاع آريوس أن يجد بطانية كان قد تركها العدو خلفه، وكان يجب أن يشاركها مع رفاقه الآخرين، و خلال لحظات معدودة، تجمّع أكثر من خمسة عشر رفيقاً ورفيقة في مكان ضيق جداً في محاولة حثيثة ليتغطوا جميعاً بتلك البطانية! في الأوضاع العادية كان آريوس يشعر بالإختناق عندما يلمسه شيء ما. وها هو الآن يغط في نومٍ

عميق بين هذه الكتلة البشرية المنصهرة كل الإنصهار في جسد و روح واحدة. كان قد فقد الإحساس بجسده و اصبح جزءاً من هذه الكتلة المقدسة.

* * *

طريقٌ يمر بين حقول غريبة جداً والرياح الباردة المُصاحِبةُ لرذاذ المطر ونباح الكلاب تهيمن على عتمة الليل الجهنمي، كل شيء كان يذكره بشيء ما، لكنه لا يستطيع أن يحدد ذلك تماماً. يدركُ بأنه مر في هذه الطرقات في الأيام الماضية، لكن متى؟ لا يتذكر.

ينتهي الطريق في أرض رخوة موحلة، يضلُ طريقه ويتوه في هذه الحقول الموحلة، يجري بلا وجهة في كل الاتجاهات ويدور في حلقة مفرغة، يبحث عن شيء لا يعرفه تماماً! لكن بلا نتيجة، وفي النهاية يقع منهكاً على وجهه على الأرض الموحلة الباردة.

يشعر باليأس والقلق من سوء عاقبته هذه. قوة ما تحضّه على أن يرفع رأسه، فيفعل ذلك تلقائياً، يلمح بصيص أضواء ضئيلة تخترق ستارات الضباب يغتبط لذلك ويتجه صوبها. أشباح الشرطة والمخابرات الفظّين يقفون- ككل مرة تماماً- له بالمرصاد، كان عددهم كبيراً جداً هذه المرة. يأمرهم عنصر أمني سمين و متهدل الوجنتين و هو يلفظ كلماته بصعوبة بالغة: «هيا اقتلوه بسرعة... أقتلوا هذا الإرهابي خائن الوطن».

يصوبون بنادقهم إليه كي يجعلوه كالغربال، يخاف كثيراً ويحاول التخلص من هذا الوضع الحرج.

آه..! إن سلاحه الحبيب على كتفه، يبتسم عندما يرى بندقيته

معه، يصوبها إلى الجندرمة و عناصر المخابرات القادمين إليه ويضغط على الزناد... هذه المرة لم يبصق الرشاش طلقاته كما كان ديدنه في كل المرات السابقة؛ إنما كانت تنطلق كالبركان الغاضب من فوهتها الملتهبة، فتخترق أجساد المعتدين عليه، و كانوا يقعون إثر إصابتهم على وجوههم بين الوحول و برك المياه الآسنة.

فيصرخ آريوس غاضباً: « لم يكن في نيتي أن اقتلكم؛ لكنكم لم تتركوا ليّ أي خيار آخر».

كان آريوس يستغرب من هذا الإنقلاب الهائل في قدراته، فقد كان يتحرك بين الجثث وبمقدوره الفرار و الانفلات من زبانية الأمن الغلاظ الذين كانوا -بدورهم- يلاقون صعوبة في التحرك و اللحاق به. يدخل آريوس إلى القرية و يبدأ بالصراخ و القفز كالمجنون سروراً عندما يرى أمه العجوز و هي مرتدية ألبسة الكريلا، يزيّن صدرها جعبة الطلقات و تتكتف بندقيتها، فهل أصبحت أمه مقاتلة بين الكريلا؟!

* * *

- هفال آريوس... آريوس... انهض يا عزيزي، بسرعة، يكفيك نوماً، انهض سوف نذهب إلى عملية أخرى...

دوغان

أيها العابث بتقاطيع روحيّ الحساس، أيها الرابع على ملتقى شراييني و أوردتي السابلة هنا وهناك، أيها الراقد تحت أديم أرضنا البكماء. قمْ بالله عليك! فقد طال الفراق، ولم أكحّل عينيي الواهنتين بنور مقلتيك الحوراويّتين... يا عزيزاً على شفاه رفاقك وأفئدتهم العاشقة لك.

دوغان! يا وردة نابتة من صلب اتحاد أرض الزيتون وسهول القطن المباركة. أيها الباز المحلق على قمم قنديل الباسقة نحو عرش الإله العظيم.

بالله عليك، لِم لا تجيب؟ ها أنا أناجيك مذ قذفتني أميّ إلى هذه البوار! فليتني لم ألقاك ولا كنتُ عرفتك أيها الراقد في ثرى الأرض التي رويتها مع صحبك الثلاثة عشر من الكواسر بدمائهم القانية في (وادي شهيدان).

أيا وادي شهيدان! أفتخر وهلل بأسمك المقدس، ولعمري هذا هو ذروة الشرف والعظمة والإباء.

بالله عليك ياعمري الضائع على متاهات الدروب الخرافية وعلى صخور بلادي النائمة بكل طمأنينة، غير عابئة بأصوات هدير البانزيرات و الحوامات و اندلاع الصخور والمياه.

آه ياعزيزي! اتوسل إليك أن ترحمني وترفع رأسك، ولو للحظة واحدة... أنظر إليّ، نظرة واحدة فقط...! ألا استحقُ نظرة من عينيك

الجميلتين؟ لا تقسى عليّ ياعزيزي... لا تقسى. فالقسوة لا تليق بتقاسيم وجهك البديع و الطفولي.

* * *

ذهب دوغان ولم يعُد بعد، ولن يعود! لا مع الغروب ولا مع الفجر... لا مع أسراب الطيور المهاجرة ولا الأسراب الآتية من رحلتها الأبدية...

آهٍ يا ولد! أنت هنا وأنا أبحث عنك في كل بقعة من أرجاء مملكة الله؟! أنت هنا تسكن في سواد عينيّ، تفترش البؤبؤ وتتوسد القزحية وتلتحف بالجفن المسهد.

بالله عليك! لِمَ جعلتني أتعب وأدور دائخاً مثل الكرة المتدحرجة من قمة الجبل إلى أسفل السافلين؟ آه ياصاحب العيون السوداء. لا تقسى عليّ ياعزيزي، فصداقتنا أعتق بألف مرة من سفينة النبي نوح.

عزيزي دوغان تعال لنذهب سوياً إلى حيث الأرض السهلية لكي نخطب لك من سرحد فتاة كـ (سمير اميس) في حسنها وجمالها. نجهّزها من السليمانية ومهاباد ونركبها على فرسٍ أصيل من سهل حران. نصبغ شعرها بحناء عنتاب. نأتي بشيخ من آمد وبيرٍ من لالش وكشيشاً من زاخو... لا تزعل ياعزيزي دوغان و لا تكترث لملابسك المتمزقة و المحترقة بالرصاص، فإنني سألبّسك أجمل الملابس المنسوجة من قماش موصل وآتي لك من شهرزور بحذاء من جلد الجاموس.

يوم الزفاف سندعو ربات العشق الكبرى (عشتار، فينوس، آناهيتا و زيلان) و لن ننسى آهورا الضياء. سنسير في ركاب عرسك المهيب

كموكب رحلة شاهبور إلى أرض الروم. سيأتي الشبان والشابات من كل قرية وقضاء ومدينة في كردستان، لكي يتحلقوا حول الدبكة، السماه و الگوفندية. رأس الدبكة في عامودا، مروراً بـ ديريك، موصل، كركوك والسليمانية... من مهاباد وحتى سيرت وديرسم و وآن وعنتاب وعفرين وفي كوباني تكون النهاية.

سوف نجعل من سهل سروج جبلاً من القلوب الباترة على مذبح عينيك الجميلتين.

ألا يكفيك كل هذا ياعزيزي؟ أرجوك، أتوسل إليك. قم ياعزيزي. انهض بالله عليك، و إلا سوف أفقد رشدي. رَأفةً بي ياعزيزي دوغان.

اكتمل الوفد ونحن بانتظارك، انهض ياعزيزي دوغان. لا ترحل..

لاترحل يادوغـــــــا ن.

كَمينٌ - لَيلةِ - القَدر

كانت الريح قد ملّت اللحاق بنا و نحنُ نصعد و نصعد، و من ثم نهبط و نهبط، و نسير في الوهاد العميقة صفاً واحداً، صامتاً هازئاً بغبار المدن التي لم تعد تتراءى خلفنا و انطفأت أنوارها الشبيهة بعيون الغيلان...

كانت الريح قد ملّت منا و نحنُ لم نمل التهام الطريق. و الطريق يزداد كلما قطعنا شوطاً منه، التعب و العرق البارد يزيد رجفات البرودة المهاجمة لأجسادنا التي لا تعرف الكلل أو التعب...

كسرة الخبز اليابس تثير في نفوسنا الطمأنينة و شيئاً من الحبور، و تدفعنا للسير مسافات أطول دون إلاء بالٍ للجوع الذي يقضم معداتنا و يقلل من مسافة قطر بطوننا الخاوية... كسرة الخبز اليابس تدرك أهمية نفسها بالنسبة إلينا، إلينا نحنُ أبناء الملائكة، لذا فقد كانت تتدلل و تتبختر زهواً في جيوب بدلاتنا العسكرية...

و كانت قطعتان من السكر ترتطمان في جيبٍ آخر من جيوب القميص العسكري و المبلل جراء سيلان العرق النابع من أجسادنا... السكر مهم، و ليست أية أهمية، فهو المصل (السيروم) الأخير الذي قد نلجأ إليه و نستمد منه آخر ما يمكننا من طاقة، بعد أن تكون ينابيع الطاقة الحركية قد نضبت في أجسادنا و تكون الأرجل قد شلّت تماماً، و لم يبقى حينها سوى العزيمة و قطعتي السكر الآمنتين في جيب القميص المغلق بإحكام...

حقيبة و سلاح و جعبة و وشاح و كسرة خبز و قطعتي سكر و طريقٌ لا ينتهي... و نحنُ نسير و الريح قد ماتت على الطريق و دفنّاها في مقبرة منسية من مقابر أنليل (إله الرياح و العواصف). كانت المسجلة تعزف أغنية من أغانينا المفضلة و قد وضعنا صاحب المسجلة في وسط الرتل حتى يصل الصوت إلى الجميع أثناء المسيرة... كأن المغني قد وضع هذه الأغنية لنا خصيصاً... انتهت الأغنية و أنتهى الشريط و نفذتْ البطاريات و لم تنتهي المسيرة التي كانت تطول فتطول، و كنا قد تركنا الريح و تركنا الشمس و القمر...

هذه الجبال هي جبال الله، و الوهاد هي وهاد الله، و السماء هي سمائه و الماء مائه، و ما نحنُ إلا ضيوف لديه، يفعل بنا ما يشاء و يسخر منا و يهطل علينا الثلج و النار... كان الرتل يسير تاركاً خلفه درباً متعرجة في الثلج. كانت آثار سيرنا تمتد خلفنا و تضمحل في الأفق البعيدة، و أمامنا محيط شاسع من بياض الثلج و جبال عالية لا ترحم، جبال لا تنحني، جبال عنيدة تماماً مثلنا نحن...

* * *

كنا ندرك جيداً من أين بدأنا و إلى أين نسير و كيف نسير، و لكننا كنا نجهل تماماً ما يُخبَّؤُهُ لنا القدر في جعبته؟! لا نخفي عليكم بأن القدر ليس له حضور بارز هنا في هذه الجبال؛ لكنه ينغص علينا مسراتنا بين الحين و الآخر.

كنا قد قطعنا جبال (بيخير، و كارا، و سركل، و كورى جارو، و كوكل، و كنيانيش، و أورامار، و مام رشو، و ميروس، و قرتال...). و كنا قد عبرنا أنهار (الخازر، و الزاب، و جمجو، و آفاشين و باسيا...). كل جبل كان أصعب من خلفه و أرحم من سلفه، و اجتياز كل نهر كان

أخطر من الخطر. و الدرب يمتد دون نهاية فارداً ذراعيه لنا نحنُ أبناء الدروب...

البلوط المرّ يحلو طعمه في الجمر، خاصةً عندما تكون جائعاً و كسرة الخبز تكون قد شارفت على الفناء، و لم يبقى سوى قطعتي سكر و اسبوعٌ من المسير و أملٌ في الوصول إلى المبتغى قبل العيد. الجوع كائنٌ يكبر كلما شعرنا به، و يموت حينما ننساه... فما الفرق بيننا نحنُ و الصائمين في شهر رمضان؟ ليس أي شيء! الفرق الوحيد هو أنهم يصمون من الشبع و نحنُ نصوم من الجوع...

تذكرتُ الصيام و تذكرتُ أمي التي كانت توقظني ساعة السحور و يستيقظ الأخوة جميعهم و في كل مرة اشترط عليهم الصيام مقابل قيامهم للسحور معنا، و في كل مرة يعدون بالصيام و لكنهم ينكصون وعدهم مع كل فطورٍ طازج في اليوم التالي... كنتُ أعرف بأن أمي تقوم لوحدها ساعة السحور أو يقوم معها أخوتي الصغار... و أنا في تلك الساعة كنتُ اقوم بدوري في الحراسة، كنتُ أحرس رفاقي النائمين. و أحرس هذه الجبال، و أحرس النجوم و الليل...

كنا قد وصلنا للتو، قبل الفجر إلى اسفل قمة (روناهي) في مضيق (سلاف) و كان علينا اجتياز هذا المضيق في اسرع وقت قبل أن يزداد تساقط الثلج و يسد علينا آخر منفذ ممكن إلى الطرف الآخر من الحدود الذي يفصلنا عن هدفنا الأوحد. و المضيق خطير، فهو تحت سيطرة العدو و عناصر من إحدى العشائر الصائمة... عشائر تؤمن بالله، تصلي و تصوم و تدعو الله في كل فجر و من ثم يحمل رجالها أسلحتهم و يتجهون إلى الدروب و يضعون الكمائن لأبناء جلدتهم، علّ و عسى يرزقهم الله الباري و الرزاق بجمجمة بشرية

يبيعونها لسادتهم أحفاد هولاكو، الصائمين ايضاً، و سيتقاضون مقابل جثة كل فرد من أبناء الملائكة مالاً يشترون بِهِ خبزاً و لحماً و نبيذاً للإفطار و السحور...

الراديو كان يصدح مذكراً بقرب عيد رمضان، و بقدسية اليوم و بركته و عظمته، و كان اليوم هو يوم ليلة القدر... تذكرتُ ذلك اليوم، حيث كنا- نحنُ المؤمنين الصغار- نزيد التعبد و نهرع إلى التراويح و ننوي لقيام الصلاة حتى تبيان الخيط الأبيض عن أخيه الأسود و كنا نتضرع إلى الله أن يصلح من أمرنا و أن يرزقنا الرزق الحلال و أمور كثيرة أخرى مثل الخبز و الحرية، و كنا نطلب منه صبحاً و عشيةً أن يأمر ميكائيل ليكون أكثر عدلاً في توزيع الأرزاق...

فهذه الليلة كانت خيرٌ من ألف شهر، و هل سنعيش ألف شهر؟ إذاً لنعبد ليلة واحدة من أعماقنا و يكفينا جزاء الله عليها طوال حياتنا... و قد حدث ذلك طوال سنواتنا التي مضت دون أن نلتقي بليلة من الليالي و لا بالقدر و لا بميكائيل و لا من يحزنون.

انبلج الصبح و كان علينا الانتظار حتى ساعات الإفطار لنصل قبل حلول العتمة إلى رأس المضيق- المنفذ- في أعلى قمة روناهي و منها نسير كالأشباح بين قرى صيادي الجماجم و أحفاد هولاكو الصائمين و القائمين لله في ليلة القدر المباركة... آه منكم يا أبناء العشيرة.

كانت عواصف الثلج تلوح في الأفق و جيوش البرد تحتل البلاد و تستعبد العباد و تملئ الوهاد بجثث البهائم و الطيور التي تاهت و تخلفت عن أسرابها في هجرتها إلى الجنوب. و قد كان أملنا الوحيد

هو تجاوز القمة و النزول نحو (سهل الحياة). كنا نعالج البرد بالنار و نعالج الجوع بحبات البلوط البري...

كانت حبات البلوط تتراقص ألماً بين الجمر و من ثم تنتفخ و تكبر و من ثم «بووووم» تنفجر و تطير خارجاً. البلوط المرّ يمسى حلواً في النار و عندما تزيل القشرة تفوح رائحة تعود بنا إلى أيام القرية، حيث كانت أمهاتنا تخبز على الصاج خبزاً رقيقاً ابيضاً دائرياً كقرص الشمس... و كانت رائحة الخبز تعلو على كل بيوت القرية ايام الجمعة، يوم تكون مخابز الدولة متوقفة عن العمل، (و هي لا تعود إلى العمل في الايام الاخرى من الأسبوع)... ما أن تهرش حبة البلوط المشوي بين يديك الباردتين و تتحسس الحرقة في جوف كفيك، حتى تسرع إلى الإلقاء بها إلى المعدة الآهبة... في ذلك الحين بالذات، تتوق إلى ارتشاف كأسٍ من الشاي، و ما تَتَذكَّر الشاي، حتى تتجه يداك إلى جيب القميص حيث تكمن قطعتي السكر فيها. لكن، أياك. لا تقربهما، فهما للحظة الأخيرة، اللحظة الأخيرة لم تحن بعد. ولا تحلم بالشاي، إنها رفاهية لا تتوفر هنا.

نتسلق القمة في شق منحدرٍ بدرجة شبة قائمة... نتسلق مستخدمين قوائمنا الأربعة و نتشبه بجدنا الاول حينما كان في الغابات الاستوائية. الصخور حادة و الثلج يعيق التسلق و يزيد أخطار الانزلاق نحو الهاوية... تلفحت قمة روناهي (و تعني الضياء) الظلمة و لم يعد شيء من الضوء سوى انعكاس بياض الثلج في المحيط، و كنا نقترب أكثر فأكثر من مضيق جبل سلاف(السلام) فهل يكون هنالك سلامٌ و أمان في هذا المضيق الخطر؟

كنتُ أثق بأن في هذه الليلة المباركة (ليلة القدر) لن يتخلى عنا الجالس على العرش العالي... فقد كنا قد تعبدنا في الكثير من ليالي القدر السابقة و هي خيرٌ من ألف شهر، و ليس من العدل أن يتخلى عنا في هذه الليلة.

كان كل شيء يمكث خلف هذه القمة و ما علينا سوى اجتياز المضيق و الوصول إلى الهدف... الوصول إلى الهدف يعني أن ننسى كل متاعبنا و كل ما عانيناه من مصاعب الطريق و أن نبدأ بشكلٍ جديد للحياة.

كان الرتل يسير بهمة نحو القمة. و قد وصل نصفنا إلى صدر المضيق و بقي البعض في المؤخرة ينتظرون الإشارة لعبور المنطقة الخطرة و التي يتوقع فيها كمائن احفاد هولاكو و قطاع الطرق من ابناء العشيرة.

جاءت الإشارة و تنفسنا نفساً عميقاً و كدنا ننسى البرد و الإرهاق، و كدنا نشكر الله و نبتهل للقدر في ليلته المحبوبة، و كدنا نحتفي ببعضنا البعض و نحمد الله على السلامة؛ حتى قطع أزيز الرصاص المنهمر علينا و اصوات الانفجارات المتعاقبة حبال أفكارنا. و ما كان علينا سوى القيام بما يجب القيام به:

التصويب نحو مصادر الرصاص... إطلاق رشقات متواصلة نحو النقاط التي تأتي منها طلقات العدو... و في الوقت نفسه التراجع و الابتعاد عن مكمن الكمين باسرع وقتٍ ممكن. و أقرب نقطة قد تكون بعيدة عنا أكثر من أربع ساعات جرياً سريعاً حتى ضفاف نهر آفاشين. أي النقطة التي انطلقنا منها البارحة، أي العودة، أي الحيلولة دون عبورنا ووصولنا للهدف المنشود.

كان العدو في الأعلى، و الكمين أعلاه و القدر أعلى من العلا، و الكل كان يطاردنا. الطلقات تتهمر كالغيث المدرار تأتي من كل حدبٍ و صوب و كلها تتجه إلينا. كانت الهاوية أمامنا و نحنُ ننزل منها نحو بطن الوادي و نتدحرج تارة و نرتطم بالصخور و جذوع الأشجار. صفحة الثلج البيضاء قد تلونت بسواد البارود و حمرة الدماء و بنّية الوحل... و في كل لحظة و أخرى كنا نقف و نطلق الرصاص على خفافيش الليل. كنا نعرف، بأن كل ما عانيناه أثناء المسيرة قد ذهب أدراج الريح.

عندما تخترق الرصاص جسد الإنسان لا يشعر بها أول الأمر، سوى رجفة صغيرة... و من ثم سخونة الدم السائل من الجسد. حينها فقط تدرك بأن نهاية الأمور قد آنت؛ اي اللحظة الاخيرة. حينها فقط، تذكرتُ قطعتي السكر التي في جيب قميصي... كان لون القميص قد تغير، و تبدل شكله كما تبدلت لون صفحة الثلج... أخرجتُ قطعتي السكر... كان لونهما قد تبدل إلى لون الحجر، لون الجمر و لون الرمان، و لم يبقى لهما هيئة السكر و لا بياضها و لا طعمها.

حينما تحين اللحظة الأخيرة، يود كل منا فعل آخر ما يمكنه فعله. كنتُ قادراً فقط على إلقاء قطعتي السكر إلى فمي، حان لحظتها. ألقيتُ القطعة الأولى في فمي، نظرتُ إلى القطعة الأخرى و هممتُ إرسالها إلى اختها التي رست في قاع المعدة الخاوي. تريثتُ قليلاً، نظرتُ إلى قطعة السكر و من ثم إلى الألوان التي لطخت صفحة الثلج البيضاء و رسمت لوحة بائسة للقدر، و نظرتُ إلى أصحابي الذين لم يعدوا رتلاً واحداً، و من خلفهم آل إلى مسمعي صوت بنات آوى و أحفاد هولاكو و ضجتهم.

أ انتهى كل شيء؟

و لكني أرجعتُ قطعة السكر إلى جيب قميصي و من ثم نظرتُ إلى السماء. كان ينظر إلينا و يضحك.

قلبي النابض

«الحياة، و هل تسميها حياةً؟ انها لم تعد كريمة بحقنا، كل شيء هنا مجحف وغليظ، حتى الشوارع و الأرصفة أصبحت تتآمر معهم ضدنا. الحبيبة امست آلة مطيعة في أيديهم وكذلك المدرسة وحتى المسجد. كل شيء؛ كل شيء أصبح في خدمتهم. وأنا لستُ مضطراً الرضوخ لهذه الحياة السطحية الساقطة، سأبحث عن دربي الصحيح كي أكون كائناً لا يرضخ لأقدارهم الملعونة و لا لقوانينهم العزرائيلية القاتلة».

- هل جننت ياولدي؟ ابقَ هنا لا أريد أن أفقدك، لا أريد! كفاني قد فقدت شقيقك درويشً.

- وهل ترين بأنني أفضل من شقيقي درويش؛ كي أبقى هنا؟ فمكاني الصحيح هناك «وأشار بإصبعه نحو الشمال» وليس هنا.

- كفانا هذا يا ولدي... التحق شقيقك بهم، ولستَ مضطراً أنت أيضاً. الكثير من العائلات هنا لا علاقة لهم بالثورة و لا يوجد أي من أبنائهم بين الثوار.

- وما شأني بهم يا أماه؟ إنني مسؤولٌ عن نفسي دون غيري.

- إن ذهبت سوف أموت، أموت، هل تفهمني؟ هل تفهمني؟

- لاتضخّمي الأمور يا أماه، أووف! (أدرك بأن لا نفع من النقاش، لذا عمل على قطع دابر الحديث تواً).

خرج من البيت منزعجاً، أشعل سيكارة وراح ينفث الدخان بشراهة

ويحادث نفسه «لا يفهموني، يريدونني أن أبقى هنا هامشياً بلا إرادة و لا هدف في الحياة، إن هذه الحياة لاتليق بنا، لاتليق. لا أعرف ما الذي تعجبهم فيها؟!». لفظ سيكارته من فمه بشكلٍ عصبي إلى الأرض وداس عليها بنعله و كأنه يسحق عقرباً.

* * *

في وقتٍ متأخر من الليل عاد أدراجه إلى المنزل حيث كان والده ينتظره في صحن البيت، قلقاً، يشوبه شيء من الحيرة و القلق، بادر والده بالتحية:

- مساء الخير.

- هل ستنام يابني؟ (و بدون أن ينتظر منه الجواب)، قبل أن تنام تعال أجلس هنا (واشار بيده إلى موضع الجلوس).

- هل من شيء تريد التحدث به يا أبتي؟

- بل أشياء يا ولدي. أنا والدك، وأكبر منك بكثير، بالإضافة إلي أنني مررت بتجارب جمة و عانيتُ من الحياة و مرارتها، أردت كثيراً أن اصارع الظروف، لذا فإنني جربت الكثير من الوسائل والطرق، تارة تمردت على تدخلات سليمان آغا وتارة أخرى انخرطتُ في الأحزاب اليسارية في المدن الكبرى، كانت شعاراتهم كبيرة جداً وأصوات طبولهم رنانة ولكنني عرفت مدى سطحيتهم وسذاجتهم، فما إن قامت الدولة بممارسة القليل من العنف و التهديد ضدهم حتى لجأ أعداد غفيرة منهم إلى أحضان الدولة واصبحوا اكثر وحشية من الفاشيين أنفسهم... و الباقون هربوا إلى اوروبا ومع الزمن أصبحوا في خبر كان ولا من يحزنون!

- وكأنك تنكر جهودهم والتضحيات التي قدموها يا والدي؟

- كلا يا ولدي فانت لا تعرف الكثير من الاشياء.

- ومع ذلك يجب أن نكون حريصين على كل ما فعلوه، علينا أن لا نتنكر لها...

- من قال بانني أنكرها؟

- من حديثك السوداوي عنهم، وكأنك تتنكر لـ ماهر وإبراهيم ودنيز والمئات أمثالهم؟

- المهم هو النتيجة ولا يهمني الخديجة يا ولدي...

- وأنت أيضاً تركتهم وعدت أدراجك إلى القرية ودخلت تحت رحمة سليمان آغا، لماذا لم تقاوم؟

- كن متأدبا يا ولد. هل تحسب نفسك قاضياً لكي تقاضيني؟ أعوذ بالله، لاحول ولا قوة، أعوذ بالله منكم أيها الجيل الـ...

همّ بالقيام واتجه إلى غرفته، متأكداً بعدم جدوى النقاش مع والده.

- أعرف بأن هؤلاء قد لعبوا بدماغك كما فعلوا مع شقيقك درويش...

- من تقصد يا أبي؟ لم يلعب احدهم بدماغي.

وولج غرفته منتشياً فخوراً بأنه بات يمتلك القوة والجرأة على الجدال مع والده في الكثير من الأمور، وأن يفرض هو أيضاً رأيه على العائلة: « يريدونني أن أصبح مثلهم، يسارياً بالإسم فقط ومتمرداً على نفسه وبنفسه. لافائدة من هذه الحياة، فلا أحد يتفهمنا ولا ينوي

التفاهم معنا. فلا المدرسة ولا المسجد و لا عصابات المافيا ولا هذا اليسار الثرثار، وهذا الآغا (سلو) العميل والمطرقة الجاهزة فوق رؤوسنا... اللعنة والف لعنة».

أخرج دفتراً من الدرج وأخذ من بين صفحاتها صورة صغيرة وقرّبها إلى الضوء، تظهر عليها صورة لشابٍ طويل يقف فوق صخرة كبيرة يحمل بيده السلاح عالياً، وعلى وجهه ابتسامة واضحة « آه يا أخي العزيز، سوف آتي إليك و سأفعل كما فعلت أنت، سوف أقتدي بكَ... أنتظرني يا اخي»

* * *

كان العالم ضبابياً تغطي الشوارع المزدحمة بالسيارات الكبيرة والصغيرة وعربات الأحصنة والمشاة المتحركين بشكلٍ عشوائي داخل المدينة، وهو أيضاً كان يمشي مع التيارات البشرية المنصاعة لقوة غريبة تحركهم وتوجه خطاهم. كان الجميع يمشون ويمشون داخل الشوارع المزدحمة بلا سبب! هو، تمالك نفسه وراح يتساءل: « لماذا أسير مع هؤلاء وما هدفي من الانصياع للسير كالدمية؟ عليّ أن أعود أدراجي و أسلك شارعاً آخر أكثر ملائمة للسير». فوراً فعل ما فكّر به. عندما خرج من الموكب البهائمي راحت العيون الناعسة تدحجه بشزرات قاسية ولئيمة وبعضها كانت تتم عن العطف والأسى و أخرى بنظرات فارغة لا معنى و لا حياة فيها. العالم كله مغلف بنقابٍ ضبابي ولا شيء واضح كما يجب، و الخطوات أصبحت تقطع الشوارع الزمانية اكثر منها المكانية، يشعرُ بخطواته و قد باتت ثقيلة و بتعبٍ شديد لا يقدر معها حراكاً، وركبتاه اصبحتا ثقيلتين وكأنه يحمل أغلالاً ثقيلة في قدميه... يشعر بضيقٍ في روحه وجسده المنهوك،

يريد التخلص من هذه الأثقال والهروب من الهواء الخانق، و كأن حجر رَحى هائل يجسم عليه و يطحنه.

شاهد غفيراً من الناس متجمهرين حول شيء ما في احدى الشوارع الثانوية و يثرثرون فيما بينهم. الفضول وحب الاستطلاع جعلاه يقترب منهم، عمل ليفتح ثغرة له في الجدار البشري الفائح بروائح العرق والوحل و روث الدواب. ولج داخل هذا التجمع غير واعٍ لسبب تجمعهم وفي نفس الوقت كان يعرف في عقله الباطني لما هو موجود هنا ويعرف لماذا تجمع هؤلاء هنا؛ كان يعرف كل ذلك وفي الوقت نفسه يجهل كل شيء و يجهل اسم المدينة وهذه الوجوه الضبابية الناعسة. يستعجل الوصول إلى مركز الدائرة حيث يمكث الشيء الذي تجمع الناس حوله. عندما وصلَ، شاهد جثة مسجاة على الارض والدماء المتجلطة المهدورة على الإسفلت الاسود ترسم خارطة داكنة، و يبدو أن سائل أصفر قد اختلط بالدم وربما كان دم هذا الشاب أصفراً!

- « لقد قتلوه بالمسدسات هذا الصباح».

ردّ رجلٌ آخر: « كلا، قد صدمته إحدى السيارات و ولّت هاربة لا تلوي على شيء ».

ازداد لغوّ الجماعة وهم يتدافقون على رؤية المشهد. و بدوره أقترب من الجثة الهامدة على قارعة الطريق البارد، لمح حذائه فأدرك بأنه يعرف هذا الحذاء مِن قبل؛ لكنه في نفس الوقت لا يعرفه، فراح يشدد النظر في الجثة...

« ياإلهي! و كأنني رأيتُ هذه الالبسة التي على الجثة من قبل، ولكن أين؟ أين رأيتها يا ترى؟ لا أعرف! لا، لم أكن أريد أن أعرف، لا، أعرف كل شيء». قوة جاذبة وقوية تشدّه للتمعن في سيماء هذه

الجثة، أحسّ بأنه قريب جداً منه وكان يعرفه أكثر من نفسه هو! شعر بحزنٍ وسخرية شديدة من هذه الجثة، كان يتوق لرؤية سمات وجهه، في تلك اللحظة بالذات تقدم أحدهم و قلب الجثة على ظهرها، صعق وصرخ وجِلاً:

« يا الهي، لا يوجد أي محل للجرح في جسده... ولكن من اين نزفت هذه الدماء، فانا متأكد بإنها دماءه هو!».

أمعن نظره في ملامح وجهه واصاب و نطق بـ« لقد انتحر هذا الشاب، بدون أن ينتحر، ومات دون أن يموت !». تطلع الحشد إليه مستغربين بعيونهم الناعسة الضبابية...

- ماذا، ماذا تقول؟ من أنت، من انت؟

- انا هو (وأشار إلي الجثة) وهو أنا، إنه نفسي لقد قتلته، ولكنه لازال حياً فيَ! لقد قتلته لأنه أبى إلّا أن يكونَ عقبة في سبيلي، لذا قتلته. هل تفهمون قتلته، قتلته. وبدأ بالصراخ والفرار على غير هدى والأثقال مازالت تقيده وتمنعه من الجري. يشعر بالضيق والتعب، طاقته نفذت منه. يحاول الهروب ولكن القيود -التي لا ترى- تمنعنه، يصرخ، يستنجد، يحاول التخلص من ثقل العالم على قدميه، «لقد قتلته، قتلته... آه آه».

على إثر صرخاته المدّوية، تحطمت المدينة الضبابية بأشخاصها الهلاميين و أندثرت في الفناء و غابت في اللاشيء. أنتهى كل شيئ و غاب، و هو يتنفس الصعداء غيرُ مصدقٍ بأنه تخلص من تلك البلية بأعجوبة خارقة.

* * *

نحن في بوطان مجدداً والربيع قد شبّ عن الطوق، لبستْ الطبيعة أثوابها الجديدة وغسلت وجهها بمياه ذائبة من الثلوج البيضاء، هنا في عالم الجبال وهذه الطبيعة الوحشية الراقدة والتي تنمُّ عن الحب، الخوف، الجمال، التهلكة، الموت والحياة، إنها الجبال الإلهية المقدسة، مهد البشرية والحضارة الأولى، هنا الحرب والموت، الدم والنار، الخوف والجرأة. إنه الثالوث المقدس في عالم الأزمنة، إنه القانون الذي يتحكم في موكب الإنسانية منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا (الحرب- التضحية- الانتصار). لكي تحارب ينبغي ألا تهاب الموت؛ لأنك بالموت تنتصر وتحقق الانتصار في الحياة، فقيمة الحياة تنبع من وجود حقيقة الموت!

هنا، في هذه الأرض الجبلية الوعرة بدروبها الضيقة والمنحدرة نحو الثالوث المقدس، سارتْ القوافل الأولى من المحاربين ليتكامل الثالوث، فمنهم طبقوا البند الأول من الثالوث، ومنهم من كانوا من أصحاب البند الثاني وبذلك كانوا سبباً في انتصار الباقين الذين عادوا أدراجهم في هذه الدروب الجبلية ليتابعوا مسيرتهم الأبدية.

هكذا مرت الأحوال متتالية وصراع الأضداد مستهلكة الوقود البشري بشراهة لامثيل له، والآن، في هذا الربيع (البوطاني) العذب، تسير قافلة أخرى من الأنصار (الكريلا) نحو أوكار العدو و أماكن تمركزهم على أراضينا المقدسة، تُغلّفُهُم هالة من الحذر والدقة في تحركاتهم؛ كي لا يحسّ بهم العدو وتفشل خطة العملية الهجومية هذه.

لكلِ مقاتل هنا دورٌ مهمٌ جداً؛ يقوم بدور الحلقة التي تربط الحلقات الأخرى مع بعضها البعض مشكّلةً بذلك السلسلة القوية والمتماسكة، فلكل شخص دور موكّل إليه مجبر القيام بدوره خير قيام،

أيُ سهو أو خطأ قد يؤدي إلى عواقب لا تحمد عقباه أو ابادة جُلّ أعضاء المجموعة المهاجمة.

قبل ساعة واحدة، كانوا في الاجتماع الخاص بمداولة العملية الهجومية، وقائد السرية يردد دائماً: «هذه هي عمليتنا الأولى في هذا الربيع... مهما كان الثمن يجب أن ننجح فيها». من المهم بمكان إنزال ضربة قوية بالعدو، الضربة الأساسية تكمنُ في هذه النقطة بالذات، ليس مهماً أن نحصل على ذاك المركز(المرصد) بقدر ما نصبو إلى دب الذعر في نفوسهم...». و يتمعن مليّاً في وجوه الحاضرين و يستأنف حديثه: «يجب أن تضربوا ضربة قاسية و خاطفة كالصاعقة ... ومن ثم تتراجعوا فوراً كي لا تقعوا تحت رحمة المروحيات وقذائف الهاون. هل تفهمون؟ الضرب القاسي- الخاطف والانسحاب الفوري. كونوا حذرين يا رفاق ». كان الرفاق الحاضرون يعلنون عن قبولهم لأوامره بإيماءات من رؤسهم.

«هل تقولون شيئا يا رفاق؟ هل من شيء يا هفال ولات... هل تقولون شيئاً يا هفال مظلوم؟»

- كلا هفال. نرجو أن نكون عند حسن الظن!

- أتمنى لكم النجاح والتوفيق. كونوا حذرين وانتبهوا إلى انفسكم. (أنهوا اجتماعهم وها هم مُنطلِقون إلى الهدف منذ حوالي ساعة).

* * *

مازالوا يصعدون القمة بكلِ حذر، ليتسللوا إلى مركز الأعداء ويباغتوهم بالهجوم وهم في غفلة من أمرهم. فالمباغتة و الهجوم سِمة من سِمات حرب الكريلا وهذا الأسلوب هو الذي يؤمّن لهم النجاح والأنتصار.

كل مهاجم يضعُ كل الاحتمالات في حسبانه (الاستشهاد، الإصابة و الإنتصار)؛ لكن، مهما كان أمل الإنتصار هو المسيطر على العقول فإن ذلك يجعل النصر أكثر وروداً... لكن هذا لا يمنعهم من توديع رفاقهم وأن يقولوا لهم: «ربما لن نراكم أبداً... انتبهوا لانفسكم و اعتنوا بذكرياتنا »، فيرد الآخر: «كلا يا هفال... إننا بانتظاركم، ستعودون سالمين».

كانوا حريصين أثناء السير ومتوخين الحذر والحيطة لعدم إصدار أيّةِ أصوات، فكثيراً ما كان صوت تكسّر غصنٍ يابسٍ تحت اقدامهم، يبدو و كأنه صوت برقٍ شديد.

« كنا نقترب من الموقع فيزداد حذرنا وخفة حركاتنا وننحني أثناء المشي...». - هيا يا رفاق.

أشار الرفيق ولات للرفاق قائلاً:

- تعالوا إلى هنا حالاً هيا... هيا بسرعة، يجب أن تكونوا حذرين سوف نبدأ بعد عشرة دقائق، يجب أن تتمركز كل مجموعة وكل شخص في مكانه المناسب.

- لِنفترض بإنهم تنبهوا إلينا يا هفال ولات... عندها ماذا سنفعل؟

- في تلك الحالة يجب أن تبدؤا فوراً ولا تقطعوا صيلات الرصاص، كذلك يجب أن تتدخّل مجموعة الاسناد فوراً، لكن يجب أن لا تصيب رصاصاتكم مجموعاتنا (مخاطباً مجموعة الاسناد) هل تفهمون؟

- نعم يا هفال...

- جيد. فليأخذ كل قائد مجموعته. هل أنت جاهز يا هفال دليل؟

- نعم...

- وأنت يا هفال مظلوم؟

- جاهز يا هفال...

- لا تنسى بأن الدور الأساسي يقع على عاتق مجموعتك، لا نريد أخطاءً...

- نعم يا هفال، لا تقلق بشأن مجموعتي.

- هل جميعكم جاهزون يا رفاق؟ إذاً الكل إلى مكانهِ المحدد.

بدأت المجموعات تتوجه نحو أماكِنها المناسبةِ. مجموعة هفال مظلوم تتألف من سبع رفاق، أربع منهم للهجوم وثلاث لتقوية الهجوم والتدخل في وقتِ الحاجةِ. مجموعة التقوية تحت إمرة هفال خليل (نائب هفال مظلوم)، في الطريق أقترب هفال مظلوم من الرفيق خليل و سأله:

- هل تعرف قصة درويش عفدي؟!

ردّ هفال خليل مستغرباً:

- وكيف جاءت هذه الفكرة العجيبة إلى عقلك يا هفال مظلوم؟!

- هل تعرفها؟ قل لي.

- كلا لا أعرفها، لكن أعتقدُ أن هفال كوجر يعرفها.

- إذاً سوف أطلب منه بأن يسرد القصة عندما نعود.

- سيكون من الأفضل بأن نسير الآن، كي لا نتأخر عن الوقت المحدد يا هفال مظلوم و دعنا الآن من القصص.

* * *

وصلوا إلى أماكنهم المناسبة وأصبحت الرمانات شبه جاهزة للرمي على استحكامات العدو، الكل يترقب الساعة المحددة للبدأ. (تلك اللحظات تمر ركيكة رتيبة وكأن كل ثانية من ثوانيها الدهر كله، لذا يتوجب على المرء أن يكون متحكم في إرادته وأن لا يهتاج أو يتوتر؛ لأن الهيجان و التوتر يؤدي إلى فقدان السيطرة على النفس وبالتالي قد يؤدي إلى فشل كل شيء.) كانت همسات الجنود المستحكمين ضمن مواضعهم تبدو كوشوشة خفيفة آتية مع الهواء الربيعي البارد.

في تلك اللحظات الجسيمة التي تكون من أصعب وأكثر اللحظات الحرجة في حياة الإنسان كلها؛ الآلاف من الأفكار والنجاوى تتزاحم على مهاجمة أبواب حصون أفكارك، فكثيراً ما تشعر بحاجة ماسة إلى الصراخ بأعلى صوتك، و تشتهي تدخين سيجارة تبغ، إن مثل هذه اللحظات حساسة جداً، حيث يغلفها رداءً من السكون والصمت تماماً كصمت القبور، فتسمعُ نبضات قلبك وكذلك تشعر بضخِ الدماء في شرايين أذنيك و سريان التيارات في أدق اعصابك، وتستعجل انتهاء تلك الحفلة البكماء الساكنة، فمثل هذه اللحظات تجعلك تجمع قواك وتجرّب مدى تحكمك بإرادتك، و إلى أي مدى يمكنك منع انهيار اعصابك.

«ماذا حدث؟ لماذا لا يبدؤون؟»، ربما هذه الجملة الإستفسارية تمر في مخيلة كل شخصٍ منبطحٍ هنا، تحت استحكامات العدو، وهم يستمعون إلى أحاديث الحراس فيما بينهم حول إرسال أحد الجنود رسالة إلى خطيبته ولكن الأخيرة لم ترسل الجواب حتى الآن. كان يبدو من صوته (الجندي) بأنه قلق ومتوتر لهذا التأخير.

تطلّع هفال مظلوم إلى ساعته مستخدماً إضاءة الساعة ليرى الأرقام و قال في نفسه: «آه! لقد بقيت عشرة ثوان»، وفوراً أشار إلى

الرفيق الذي بجانبه، إشارة تدل على مغزى (هل أنتم جاهزون؟)، و جاءه الرد سريعاً عن جاهزيتهم، الكل كان جاهزاً لاستقبال إيعاز البدأ بمشاهد هذه المسرحية، يكون الجمهور هم الذين يمثلون، لأن الكل يمثل دوراً مكلفاً به.

يجب أن تكون البداية من هفال مظلوم، و هو بدءها دون تأخير... بدأت اللعبة عندما ارتفع شيء ما في السماء ومن ثم وقع في الإستحكام وتلتها أصوات إنفجارات و أزيز صيلات الرصاص. مع بدأ اعلان المسرحية من قِبل مظلوم، حذا الرفاق حذوه في رمي الرمانات وإطلاق الرصاص على العدو ومحاولة الدخول إلى استحكاماته، أطلق الحارسان صرخة مفزعة وبعدها خيّم عليهما الصمت الأزلي، و قبل أن يتمكن جنود العدو الخروج من هول المفاجأة و الرد على هذا الهجوم الصاعق حتى كان عدد كبير منهم قد لقى مصرعه وهم في أكياس النوم، أو أثناء محاولة الفرار. و تمكن عدد منهم الفرار في الجهة الاخرى أما القسم المتيقّظ بادروا بالرد على الهجوم، بهجوم معاكس، ولكن المبادرة كانت في أيدي الكريلا، لأنهم أصبحوا في قلب المركز، وهم يهاجمون بشكل خاطف، والعدو في دفاع عنيد، و طلقات الرشاشات تحرق الأرض حرقاً، فتتطاير الشظايا والرصاصات فتتقاطع بشكلٍ هستيري في الهواء.

كان الرفاق يستعجلون القضاء على هذا المركز ومن ثم الإنسحاب الفوري قبل تدخل القوات الأخرى وكذلك قدوم المروحيات. كان جنود العدو مصرّين على التشبث بالاستحكامات المتبقية، وكانوا يرشقون كل الجهات بصيلات الرصاص ويرمون الرمانات باتجاه يمنة و يسرة بشكلٍ عشوائي. كانت المسرحية مستمرة في تقديمِ عروضها الحية،

مسرحية لا تعرف سوى لغة النار والحديد، القوي والسريع هو الذي ينتصر على خشبة هذا المسرح!

- «هيا أقترب فوراً يا هفال خليل، هيا. هيا أريد منك أن تطلق قذيفة (آر بي جي) على ذاك الإستحكام. هيا بسرعة، إنه يعيقنا عن التقدم». سددّ خليلٌ قاذفته على الإستحكام العنيد، ارتفعت النيران منه، فصمتت اصوات الرشاش فيها، عندها همّ مظلوم مع مجموعته للإنطلاق والسيطرة عليها، لكن بدا و كأن القذيفة لم تؤثر على الإستحكام العنيد، حيث عادت رشقات الرصاص تتهمر منها وكأن شيئاً لم يكن!

* * *

مجموعات الكريلا الأخرى كانت تهاجم بدورها، و سيطرت على عدة استحكامات، لكنها لم تكن تستطيع التقدم أكثر من ذلك، بسبب الإستحكامات المسيطرة على المنطقة المسطحة الفاصلة بينها وبين المهاجمين، فكلما حاولت مجموعة إجتياز المنطقة الفاصلة، حتى رُدت على أعقابها إثر رشقات من استحكاماتِ العدوّ تلك. كان الوقت يمر، وعليهم القضاء على تلك الإستحكامات التي تعيق السيطرة على القمة كاملةً. جنود العدو بدورهم كانوا يعملون و بكل عناد لِكسب الوقت حتى يأتيهم الدعم من المعسكر الموجود في القرية.

حينما هاجم الرفيق دليل مع مجموعته محاولاً اجتياز تلك المنطقة الجرداء أصابته طلقة في كتفه وقع على إثرها على الارض، فسحبه الرفاق الآخرون إلى الخلف و من ثُمّ قاموا بابعادِه؛ إصابة الرفيق دليل خَلَقَت ضعفاً في الجبهة الهجومية، وتفادياً لأية نتائج سلبية، بادر مظلوم لشنّ هجومٍ خاطفٍ على الإستحكام العنيد، طلب

من الرفيق الذي يحمل الرشاش الثقيل بأن يغطي هجومه و يلهي العدو ريثما يصل الإستحكام، فلعلعت الرصاصات المنطلقة من (بي كي سي) تأزُ أزاً على رأس الإستحكام، و في لحظات معدودات انطلق مظلوم كالبرق مع أثنين من رفاقه باتجاه الإستحكام، مستفيدين من توقف رشاش العدو.

وما أن وصلوا إلى مكان قريب جداً من الإستحكام، حتى توقفت الـ(BKC) عن إطلاق النار، كي لا تصيب الرفاق الموجودين بالقرب من الإستحكام و تسنح لهم بِمُباغتةِ العدو. و ما ان توقف رشاش الرفاق حتى عاد العدو يطلق بشكل عشوائي على جهة الجبهة المهاجمة، وكانوا في غفلة من أمرهم بأن الكريلا أمسوا قاب قوسين من وضع الرمانات في وكرهم.

ما أن دخلت أول رمانة في الإستحكام، حتى توقفت رشاش العدو عن اللعيع، وفرّ الجنود المصابون تاركين ورائهم رامي الرشاش مع سلاحه مصروعاً بانفجار القنبلة. و سقط الاستحكام العنيد، هذا السقوط أثَّر على جبهة العدو ودبّ الذعر والضعف في سلسلة دفاعه وفارت دماء الرفاق وراحوا يهاجمون بلا هوادة. كرّ هفال مظلوم على استحكام آخر، وما أن دخلها، حتى سُمِع صوت انفجار رمانةٍ يدويةٍ في الإستحكام الذي دخلها و سُمع صراخاً حاداً و على إثرها ساد الصمت على الكون كله.

سقط مرصد العدو باكمله و فرّ الجنود، تاركين ورائهم عدد من القتلى والجرحى والأسلحة والمستلزمات العسكرية.

- ماذا حدث يا هفال؟ هل من شيء؟

- أعتقد بان هفال مظلوم قد أصيب في ذاك الإستحكام...

- لِنرى ما حدث، هيا تعال يا خليل. وانت يا يَشّار، وأنتم أجمعوا الأسلحة وقوموا بالحراسة المشددة وتمركزوا في الإستحكامات، هيا بسرعة... (انطلق مسؤول العملية- الرفيق ولات- إلى الإستحكام الذي سُمع منه صوت الإنفجار و صراخ مظلوم الهائل).

- يا ستار! ماذا حدث؟

- يبدو أن الرمانة قد انفجرت في اللحظة التي دخل هفال مظلوم إلى الإستحكام... يا للأسف! (كان قد أصيب بعدد لا يحصى من الشظايا والحروق المنتشرة في كل اجزاء جسده، الدماء قد نزفت من أذنه وفمه وانفه ومن رأسه أيضاً. كان جسده في جمودٍ أخرس...)

- يبدو أن إصابته بليغة وقاتلة يارفاق...

- أعتقد بأنه قد استشهد ياهفال ولات.

- ماذا؟ است... اللعنة و الف لعنة... ماكان يجب أن يتسرع! (بدى من صوت الآمر بأن كلامه مختلط بكاءً وغصة في حلقه، كان يضرب بقبضته على الأرض بكل قوته).

في تلك الأثناء بدأت أصوات صفير و انفجار قذائف الهاون تهدر في القمة، بدء العدو يمطر القمة(التي سيطر عليها الكريلا) بقذائف المدفعية بشكلٍ عشوائي، كذلك أصوات المروحيات (الكوبرا) إرتفعت من مكانٍ بعيد بدأت تقترب من القمة. و تفادياً لأية مناوشات جديدة مع العدو، بدأ الكريلا بالاستعجال في الإنسحاب من مكان العملية فوراً و القيام بمناورة تضليلية للمروحيات. تمكن عدد منهم الابتعاد على شكل مجموعات متوجهين صوب المكان المحدد للتجمع والمناورة.

- ماذا سنفعل أيها الرفيق الآمر؟

- بشأن ماذا؟

- بشأن هفال مظلوم (و أشار إلى الجثة الهامدة أمامهم)، كيف سننقلها؟

- كم هو عدد الرفاق الباقين هنا؟ هل يوجد جرحى آخرين؟

- لقد بقي مجموعة فقط أيها الآمر، أعني مجموعة هفال مظلوم.

- من الأفضل أن نخبأ الجثة في مكان ما، نموهها وبعدها سوف نرسل مجموعة كي يأتوا بها ويدفنونها في مكانٍ مناسب.

- ولكن يا رفيـ...

- لا لكن في الأمر... تصرفوا كما آمركم به.

- نعم...

أخذوا الجثة الى مكان ليس بالبعيد عن المرصد، و قذائف الهاون لم تمنح لهم الفرصة كي يبعدوها أكثر؛ واضطروا إلى دفنِها بحفرة قديمة و طمروها بالحجارة والتراب والأغصان الجافة بهدف التمويه كي لا يراها العدو. ومن ثم انسحبوا سريعاً تحت وابل القذائف وهدير المروحيات.

* * *

«ماكان يجب أن يحدث كل هذا، لِمَ رحل هفال مظلوم؟ لماذا؟ ماكان يجب أن يستشهد في اللحظات الأخيرة من العملية، آهٍ يا هفال مظلوم!».

خيّم الحزن و الأسى على سماء سرية الكريلا، فقد خسروا عموداً من أعمدة السرية و رفيقاً مثالياً ك مظلوم، ذو مكانته الجميلة

في نفس كل رفاقه، و كان له حضوره الخاص في كل مكانٍ ذهب إليه أو ناضل به. (لا ننسى بأن المنطق الذي يطغى على العقول الشرقية، هو أننا ندركُ قيمة الأشخاص بعد فقدانهم أو رحيلهم، فهل يفيد ضرب الرأس بالصخور بعد طيران الطيور و أفول الشمس؟! فنحن في الشرق كثيراً ما نقيّم الاشياء و الاشخاص و الأفكار بعد أن نفقدها أو نرى المحيط يقيّمها).

وها هو مظلوم قد انقطع عن رفاقه، يمكث تحت التراب والحجارة الباردة، قريباً من المرصد الذي عاود العدو تمركزه فيه مجدداً و يخليها كل مساء خوفاً من هجوم آخر. مرت الأيام متتالية في حياة الجبال المليئة بالأحداث و الاعمال والنوائب، ذكر مجريات تلك العملية كانت تتردد على أوتار من الرتابة حيناً وحب التشويق و بعض الإثارة بين الرفاق أحياناً أخرى. فمنهم من كان يصيغ السمع وينصهر مع الأحداث ويتفاعل معها، و غالباً كان يتم ذكر هفال مظلوم، وفي بعض الأحيان يمر أسمه مرور الكرام، أحياناً يصاحب ذكر أسمه هذه الجمل « لقد كان رفيقاً جيداً»، «ما كان يجب أن يستشهد»، « سيء الحظ مظلوم، لم يلتقِ بأخيهِ درويش يا للأسف!»

* * *

بعد مرور أسبوعين على تلك العملية، جاء أحد الوطنيين من القرى النائية بخبر أن أحد الرفاق الجرحى موجودٌ عنده، طالباً من الرفاق بأن يذهبوا معه لأخذه، قال القروي لقائد السرية:

- يا هفال... في ضيافتي أحد رفاقكم الجرحى، القرية خطيرة جداً كما تعلم، يوجد مخفر للعدو، كما أن أكثرية القرويين مرتزقة متعاونون مع العدو...

- ماذا تقول يا عم (مستغرباً)؟ إن جميع رفاق سريتنا هنا، ولا يوجد من فقدناه! ربما تكون مخطأً.

تدخّل احد الرفاق قائلاً: « ربما يكون الشخص الذي تتحدث عنه أحد أعضاء عناصر العدو».

- لا لا يا رفاق... أرجو أن تُصدّقوني، أنه أحد رفاقكم، وأنا متأكد من ذلك.

- وكيف تتأكد ياعم؟

- أنا أعرف الرفاق منذ عشرة أعوام، إنني أعرفهم فوراً ومن النظرة الاولى.

- قلتُ بأن جميع رفاقنا موجودون هنا! قد يكون أحد الرفاق المراسلين أو من منطقة أخرى!

كان القروي مصراً على إقناع الرفاق، بأن ضيفهُ المزعوم هو أحد رفاق هذه السريّة بالذات دون غيرها.

- كلا كلا! لا أعتقد يا رفيق، فمنذ مدة طويلة ولم يقترب أحد الرفاق من هذه المناطق...

ابتَعَدَ قائد السرية مع مساعده قليلاً و بدءا يتشاوران فيما بينهما همساً.

- ألا تظنُ بأن هذا القروي يكذب علينا ويريد الإيقاع بنا في شرك العدو؟

- اعتقد ذلك، خاصة وأن العدو يريد الثأر منا بعد تلك العملية الأخيرة فهو- العدو- لا يستطيع المجازفة و القدوم إلى هنا، لذا يحاول أن يجرنا إلى القرية.

- ولكن ماذا نفعل به؟ ربما كان الرجل صادقاً.

- لنسأل الرفاق الأخرين إن كانوا يعرفون شيء عن هذا الرجل؟

- نعم فكرة جيدة.

بعد أن عرفوا و تأكدو بأن هذا القروي يخدمُ الكريلا منذ مدة طويلة ولديه أخ شهيد، و بعيد كل البعد عن الشبهات؛ دفع الرفاق أن يحاولوا معرفة الموضوع عن كثب.

- يا عم هل تعرف اسم ذلك الرفيق ومتى جاء اليك و...؟

- نعم نعم، اسمه مظلوم، نعم (مظلوم شيرواني) و جاء إلينا قبل اسبوعين تقريباً.

- ماذا تقول يا عم؟ هذا الرفيق الذي تتكلم عنه أستشهد قبل أسبوعين و واريته بنفسي الثرى؟

- أقسم لكم بشرفي بأن أسمه مظلوم شيرواني و ربما يكون شخص آخر بنفس الاسم! وهذا ايضاً وارد، لكنه قال بأن اسمه مظلومً.

- ماهو شكله، طوله، لونه و...؟ صِفهُ لنا.

- إنه طويلاً نوعاً ما، شعره كستنائي، و يدّعي بأنه من شيروان.

تعجب الرفيقان وراحا ينظران إلى بعضهما البعض بنظراتٍ حائرةٍ متساءلة. بعد التداول أتفقا على أن يذهبا مع القروي إلى أطراف القرية كي يبتّا في الموضوع ويستوضحا الأمر. رغم إعتراض بعض الرفاق و الرفيقات على مخاطرتهم بحياتهما بالذهاب مع هذا القروي إلى المجهول و لكنهما أصرا على الذهاب بعد أن أحتاطا لكل المفاجأت التي قد تعترضهما؛ كذلك لم ينسا اصطحاب عدد من

الرفاق للحماية. بالرغم من أن الظنون كانت تهتاج كالموج في عقولهم، لكن هو الفضول وحب المعرفة دفعهما للاسراع بالتوجه نحو المكان المعين. عندما وصولوا المكان المعين ظهر شخص من بين حرش شجيرات البلوط و اقترب منهما بصعوبة بالغة. أصابتهم الدهشة وعلّق لسانهم و لم يعرفوا كيف يتحركوا أو ماذا يفعلوا. كان أمامهم شخص لم يكن في الحسبان ابداً و لا حتى رؤيته في الأحلام. لكن ها هو أمامهم بشحمه ولحمه و عينيه الضاحكتين. ولكن ماذا جرى ياترى؟ ماذا، كيف حدث؟ فهل هم في حلمٍ أم يقظة؟ هل كانوا أمام سراب و شبح مزيف أم وجهاً لوجه مع هفال مظلوم الذي استشهد في العملية الأخيرة؟

ماذا حدث؟

* * *

ليلة من ليالي ربيع (بوتان) ذو جوٍ باردٍ برودة الجبال السامقات، والصمت الأجوف يغلف الكون كله بعباءته القاتمة، ماعدا أصوات الثعالب وأبناء آوى الجائعة التي تثقب نقاب السكينة الوحشية.

المرصد الذي تعرض للهجوم من قِبل الكريلا ليلة البارحة، قد تركتْ ورائها روائح من دمٍ و بارود و صدى حشرجاتٍ صمتت رغماً عنها، و هذا القبر الخشن؛ قبر مظلوم المنزوي!

العالم ضبابي أبكم، يخرق سكونها الجهنمي أصوات ضئيلة غائرة في البعد، كأنها آتية من جوفِ بئرٍ عميق. كل شيء أسود قاتم، ثقيلٌ و ضحل، آلامٌ كالخناجر تنغرس في الجسد و تحزُ بها بلا إنقطاع، رائحة الدماء، الحروق وعبق التراب البارد وأغصان الأشجار و... تشكل كلها مجتمعةً طهاءً مقرفً لدرجة لا يمكن تحملها.

« آه هـ هـ هـ آهاااااا آآآ... ماهذا الثقل؟ انني اختنق أ تـ أ لـ م... أكاد أموت، أشعرررررر ببردٍ شديدددد وآلامٍ في تنخرُ في روحـي و كل جزءٍ من جسدي المنهوك. ماهذاااااا الثقل اللللعين؟ يا إلهيييييي ماذا حدث ليّ...؟ أين أنا، أين؟».

إنها الإسطورة والعجب العجيب... الجثة المطمورة في الجدث مازال فيها عرقٌ من لحياة. و ها هو يستشعر الكون والبرد و الآلام الناتجة عن جروحه و حروقه وثقل التراب والحجارة الكامنة عليه؛ قوته منُهكة لأبعد الحدود... يريد الانتفاض للتخلص من هذا الثقل الجسيم الرابض على جسده، يحاول أن يتزعزع ولو قليلاً، يجهد و يصرّ بأسنانه، يتنفس بصعوبة بالغة و يشعر بخرخرة الزفير الخارج من آثار الشظايا التي اخترقت صدره و أصابت منه ما أصابت. يتململ تحت التراب، يحاول الخروج جاهداً، تبوء كثيرٌ من محاولاته بالفشل، يزدادُ غضباً و حنقاً. يريد الصراخ بأعلى صوته، لكنه عاجز ولا يقدر على النطق: «ماهذا ياإلهي؟ هل أنا ميّت أم طُمرتُ وأنا حي! يجب أن أخرج من هذا القبر اللعين بأسرع وقتٍ ممكن». يستجمع قواه المتبقية محاولاً الخروج؛ و محاولاته بدأت تثمر. أستطاع أن يخرج يده اليسرى من القبر وبها أزال بعض الحجارة والأغصان التي تربض على جسمه بشق الأنفس، و رويداً رويداً راح يتحرر من ذلك الثقل اللعين.

نسائم الحرية الباردة تتسرب و تلفح جسده -الشبه عاري، فملابسه تمزقف إثر الشظايا والحروق. حواسه كلها متوقفة عن العمل ما عدا البصر، فاقداً لكل إحساس بالزمن والإتجاهات، و يشعر بالآلام والظمأ الشديدين، كان عائماً في بحرٍ من الحيرة و الوحدة و الألم. لمح ضوءاً أحمراً يتلألأ من بعيد؛ أدرك بإحساسه المشوش و

ذاكرته المضطربة بأن ذلك الضوء البعيد، إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ بلا ريب على وجود قرية ما؛ لذلك قررّ الاتجاه نحوها. لم يكن يريد أن يتوه في الوديان و بين الأحراش الكثيفة و يسير بلا هدف أو وجهة معينة. كل الكائنات تسير نحو الضوء، انها غريزة موروثة في ذاك الكائن البدائي القابع في أعماقنا.

حاول النهوض تأرجح و سقط على وجهه، كانت الجروح و الكسور الكثيرة تعيق نهوضه و سيره على قدميه، فقرر السير حبواً(على يديه وركبتيه). كانت المسيرة صعبة و امتَلَئَ جسده المنهك بالخدوش و الجروح جراء الأشواك و الأحجار وسقطاته المتكررة من على الصخور. هذه المسيرة كانت بحق، عرضاً من عروض المسرحيات التراجيدية التي يمثّلها هذا الجريح الخارج من القبر. وحيداً، يتجه نحو الطرف الذي سجله في بوصلة عقله. بقايا ملابسه تحولت إلى خرق بالية متمزقة وجسده الملطخ بالتراب والدماء والعرق أحالته إلى مخلوقٍ لايشبه الآدميين بشيء، خاصةً وإنه يسير على الأربعة و لا يقدر على الكلام... أما كان من الأجدى له أن يرضخ للقدر و يستسلم للمحتوم و ليحدث من يحدث دون أن يحمل نفسه مشاق السير زاحفاً و حبواً نحو ذاك الضوء المجهول!

استمرت المسيرة ثلاثة ايام، يسير ليلاً صوب الضوء و ينزوي في جذوع اشجار الدلب الهرِمة و بين الصخور نهاراً؛ وفي مطلع فجر اليوم الثالث أقترب من مضارب إحدى القرى الجبلية النائية: (في هذه القرية يوجد معسكر للعدو وبالإضافة إلى عدد كبير من حماة القرى المعاديين أكثر من العدو لقوات الكريلا).

***

خرجت (فاطو) من البيت واتجهت نحو الزريبة، تركت الأغنام وسرّحتها إلى الخارج بانتظار الراعي كي يأخذها إلى المراعي المجاورة. ثم راحت تنثر الحب على دجاجاتها، و همّت بتحضير اللبن الرائب، وضعت اللبن في القربة (مشك) و راحت تخضّها بكل قوتها- إلى الأمام إلى الخلف- إلى الأمام إلى الخلف... فجأة سمعت صوت أنينٍ غريبٍ آتٍ من باب السور الحجري، توجهتْ بأنظارها صوب مصدر الصوت، و رأت منظراً اقشعرّ لهُ بدنها. فزعت فاطو لما رأتْ، و عندما راح ذلك المخلوق يقترب منها ماشياً على الاربعة؛ فاطلقت صرخةً وقعت على الارض مغميةٌ عليها.

كان (إيبو) لا يزال يتململ في فراشه الدافىء عندما طرق سمعه صوت زوجته و صراخها المدوي، فهرع فزعاً، بملابس النوم إلى الخارج يستدرك الأمر، فرأى زوجته ممددة على الأرض، و لم يتبين له السبب، فهرع نحوها وفي تلك اللحظة لمح شخصاً آخر ممدد على الارض، بملابس ممزقة ووجه مدمى، فَزَعَ إيبو و انتصب شعره خوفاً، و ما أن أستدرك نفسه، حتى أرتمى نحو فاطو و راح يهزها كي تفيق، و ما أن استعادت وعيها، قام واتجه نحو ذلك الشخص الدخيل يستفسره عن اسمه وماذا يفعل هنا... موجهاً له سيلاً من الأسئلة اللحوحة...

- من أنت يا؟ ماذا تفعل هنا؟ من الذي فعل بك هذا؟ من أين أنت؟ قلّ لي، من أنت؟ (لكنه لم يتلقى سوى بغبغات غير واضحة منه).

استطاع إيبو نتيجة تجربته التعرف على من يكون هذا الشخص و ذلك من بقايا ملابسه وشكله الغريب، اشتبه بأنّهُ قد يكون واحد من الكريلا، فسحبه إلى التبانة (مخزن التبن) و خبأه بها حتى لا يعلم المخفر أو القروجية الخونة بأمره. كان أيبو يعرف جيداً ما الذي

سيجري لهذا الضيف إذا سقط في قبضة العدو، سوف يقتلون ضيفه ويحرقون بيته ويشردون عائلته؛ تفادياً لهذه الإحتمالات؛ لجأ إلى تمويه الدرب الذي جاء منه الجريح وبعدها أحضر بعض الأدوية و الأقمشة لتنظيف جراح الضيف وتضميدها. و سارعت فاطو إلى تحضير حساءٍ ساخن، و أعشاب برية ليتقوى ويستعيد الدماء التي نزفت منه.

استعاد مظلومٌ ذاكرته وقدرته على النطق تدريجياً، كما إن الجروح السطحية تماثلت للشفاء مع مرور الوقت و اعتناء أيبو و فاطو به. سرد مظلوم قصته و ما مر به من أهوال لهما مُعَبّراً عن شوقه و لوعته لرؤية الرفاق مجدداً و العودة إلى أحضان الجبال.

- أرجو منك يا هفال إيبو... أرجو أن تتصل بالرفاق و تخبرهم بوجودي في أسرع وقتٍ ممكن.

- لا تستعجل يا هفال، لا تزال في حالة صعبة، لِمَ العجلة؟

- لقد تعافيت و عليّ الخروج من هنا.

- لا تستطيع السير على قدميك بشكلٍ جيد، ثم أن العدو يقوم بالتمشيط في المنطقة بشكلٍ متواصل و عيونه في كل مكان... ومن المستحيل الإتصال بالرفاق في هكذا حالة!

- أرجو أن تنتهي بسرعة هذه التمشيطات اللعينة.

- خوفي الأكبر ليس من التمشيطات، بل من القروجية الخونة، أكثرية القرية متعاونة مع العدو و لن يترددوا في الإخبار عنا أو قتلك للحصول على جائزة من العدو.

مر أكثر من اسبوعين و أيبو يخدم ضيفه الجريح أفضل خدمة ويعتنِ أعظم اعتناء ويقوم بكل شيء لحمايته و ابقاءه بأمان.

- محظوظٌ لأنك لم تدخل البيوت الأخرى الخاصة بالقروجية (المرتزقة)؛ لبادروا فوراً إلى تسليمك للمخفر، هم يرتكبون كل الأمور القذرة و لا يتوانون عن إرتكاب أي شيء في سبيل المال و نتيجة بيعهم لأرواحهم للعدو!

- نعم، كان من حسن حظي أنني التقيتُ بكم يا عم إيبو...

* * *

كثرت الوشايات في القرية حول وجود أحد المقاتلين الجرحى في الجوار ولكنها لم تكن أكيدة و دقيقة. لكن هذا لم يمنع العدو القيام بحملات بحث واستكشاف في بيوت القرية وجوارها مراراً. كان الخطر يقترب و قد بات قابَ قوسين من الرفيق مظلوم، و العم إيبو يجاهد لحماية ضيفه و ابعاده عن الأخطار؛ فقام بنقله إلى مكان يبعد قليلاً عن القرية وخبأه بين الاحراش الكثيفة مموّهاً المكان بالاغصان والحجارة، ريثما تنتهي الحملة التمشيطية و ما يصاحبها من أخطار، و تهدأ الامور حتى يعود لارجاعه الى البيت.

كان العدو يشتبه بعدد من القرويين الذين ربما قد يأوا الكريلا أو يساعدونهم، ومن بين المشتبهين جميعهم، كان العم إيبو في الصدارة. خاصةً وأن العدو قد حصل على معلومات شبه أكيدة حول نشاطات العم إيبو ويعرفون تاريخه وعلاقاته القديمة مع الثوار وخدماته لهم كأحد المناصرين للحرب التحررية. والعدو يبحث منذ مدة طويلة عن ذريعة ما ليلقي القبض عليه وينتقم منه شر انتقام. وشاية واحدة من خائن كانت ذريعة في يد العدو لمباغتة بيت إيبو.

أثناء مباغتة العدو للبيت، كان من حسن الحظ بأن مظلوم كان خارج البيت في تلك الأثناء، و تنبه من ضجيج العساكر و صراخ فاطو

المفتعل، فبادر بالإختباء بين الصخور يراقب ما يحدث ويستمع إلى الجدال و الشتائم التي يمطرها الضابط التركي للعم إيبو:

- نحن نعلم بأنّكَ تأوي أحد الإرهابين في بيتك يا إيبو.. أين هو؟

- أنا لا أعرف الإرهابيين.

- لا تكذب يا حيوان! أين هو ذلك الإرهابي... ها، أين؟

- قلتُ لا أعرف ولا يوجد عندي أحد.

(صفع الضابط على وجه العم أيبو و رفسه في بطنه و أوقعه أرضاً آمراً الجنود بتفتيش البيت بكل زواياه)

- سوف نرى الآن أيها الخائن.

- أنا لا أعرفهم ولا دخل ليّ بهم و...

- لا تحبهم ها؟ و هل تحسبني أبلهً حتى تخدعني(صفع على وجه العم إيبو الذي لم يكترث لذلك، فقلبه ينبض خافقاً بالخوف والفزع الشديد، من أن يكتشف الجنود ضيفهُ... فتكون الفاجعة والنهاية الفزيعة).

لم تسفر تهديدات الضابط و قلبهم للبيت رأساً على عقب عن أي شيء و خاب أملهم بأن يستثأروا من العم إيبو. هذه المرة أيضاً نجى مظلوم من الوقوع في الأسر. على إثرها طلب- و بإصرار- أن يقوم العم إيبو بتوصيله إلى الرفاق في اسرعِ وقتٍ ممكن، مدركاً بإنه بات خطراً على العم إيبو وعائلته و يشكل ثقلاً عليهم.

أضطر العم إيبو للإنطلاق بحثاً عن الرفاق في الأماكن والنقاط التي قد يتواجدوا فيها، و بعد عدة أيام من البحث و التعقب المضنيين،

أوصلته قدماه إلى سرية للرفاق وأخبرهم بوجود أحد رفاقهم بأسم (مظلوم) يمكث عنده في البيت وطلب من الرفاق بأن يأتوا لِأخذِه.

* * *

كانت الشمس الآيلة إلى الغروب، تستعجل الخطى لتزف للخلائق بشرى قدوم الليل الحنون، و أسراب الطيور المتوجهة نحو أعشاشها معلنة ساعة استراحة الأرواح. آخر إشعاعات الشمس الحمراء الغاربة تجعل الكون صورة من الدفء السكينة، و تدبُ الرعشة اللذيذة في النفوس الطيبة... كل يوم، في مثل هذه الساعة، يجلسان هنا و يتداولان أطراف الحديث، فلا ملل ولا تكرار في حديثهما العذب الدائر حول الكثير من الأمور والأحداث المثيرة و التي تركت بصماتها على سير حياتهما الشيقة. فأي موضوع يتحدثا عنه مرة، لا يتطرقان إليه بعد ذلك بتاتاً؛ ففي حوزتهما رصيد بنوكٌ و خزائنٌ من الكلام والأحاديث التي لا تنتهي، و كثيراً ما كانت جلساتهما الخريفية تنتهي بموالٍ حزين، يغنيه هفال ريناس، صاحب صوتٍ داوودي، صوتٌ حنونٌ دافئ. حينما يرفع عقيرته بأغنية فلكلورية حزينة، يذوب كل من يستمع في كيان مقاطع و أحداث الاغنية، يشعر نفسه يعاون فرهادً ليحفر الجبل لعيني شرين، أو كـ ممَّ يفضّل المنيّة على ترك الحبيبة زين أو سيامنداً يصارع وحش البراري لأرضاء خجة... غِناؤُهُ و صوته العذب يأخذ بالمستمع إلى أماكن سحرية دافئة، و تدكجه برومانسية جبلية خلابة!

مظلوم كان دائماً يطلب من ريناس بأن يغني له أغنية (درويشى عفدي وعدوله). لكن في كل مرة كان ريناس يعتذر لعدم قدرته على تلبية مطلب مظلوم و يبرر ذلك بعدم استعداده لأداء تلك الأغنية... كان مظلومٌ يتقبل على مضض رفض ريناس لمطلبه ذاك.

ريناس، لا يغني إلا الأغنية التي يشعر بأنه يستطيع أن يغنيها في تلك اللحظة، لا يمكن لأحد أن يجبره على أن يغني ما تريده أنت منه، كذلك الأمر بالنسبة إلى قصصه وذكرياته الشيقة التي لا تنتهي؛ يسرد ما يريده هو بالذات و ليس الذي تطلبه منه!

* * *

بعد عودة هفال مظلوم من سوريا (حيث كان قد تم إرساله للمعالجة و إجراء العمليات الجراحية اللازمة و كذلك المشاركة في دورة الأكاديمية المركزية للحزب)، عاد إلى الجبال و توجه إلى أيالة (غرزان)، علم مِن هفال ريناس بأن أخاه (درويش) قد استشهد قبل ثلاثة اشهر في نفس المنطقة (غرزان)، انصَدمَ بعدَ أن كانَ مُنتشياً لوعةً لتذوّقِ لذّة اللّقاءِ بأخيه بعد طول الفراق، لكن هيهات ثم هيهات! فالحرب لا ترحم أحداً و قد كانت تزداد شراسةً و قسوةً يوماً بعد يوم، و ما درويش إلا واحدٌ من عشرات خيرة الفتيان الذين قضوا في ضراوة هذه الحرب الوحشية... استشهاد الأخ كان أليماً و ثقيل الوطأة على مظلوم، بدوره كان يجد رِثائه في صداقة هفال ريناس.

عندما تحتك مع ريناس، تشعره قريباً إلى روحك... الكل يحبونه و يحترمونه، فهو مقاتل متمرّس و صاحب تجربة وهادئ جداً؛ كان مظلوم يتقرب منه كثيراً و يشعر بالراحة و الطمأنينة برفقته. سرد مظلومٌ حكايته مع الموت ودفنه حيّاً في و كيف وصل إلى بيت العم إيبو و رحلته إلى سوريا بعيداً عن ساحات الحرب الساخنة و شوقه إلى اللقاء بأخيه درويش، سرد كل هذه الأحداث على صاحبه الجديد ريناس. كثيراً ما كان يفاتحه بلواعج روحه وحزنه على أخيهِ و رفيقه درويش وحسرته التي ستبقى لوعة تلظى بلهيبها فؤاده إلى الأبد.

- إنها قصتي يا هفال ريناس! قصتي أنا، عشتُ أحداثها لحظة بلحظة. دوّنتُ جلها في ذاكرتي، حتى باتت لا تقدر على تحمّل أي شيء آخر. ذاكرتي ممتلئة.

- إنها جديرة بأن تكون ملحمة أو أغنية كلاسيكية طويلة.

- لا تسخر مني يا هفال ريناس.

- لا لا بتاتاً، لستُ بمازح و حاشاك من السخرية! أقسم لك لو كان لي خبرة في الأدب لكنتُ ألّفتُ رواية من قصتك هذه.

- لا أظن بمقدورنا كتابة شيء عنها و نحنُ في عاصفة الحرب الهوجاء هذه، سوف تُنسى مثلها مثل آلاف قصص هذه البلاد و هذه الحرب.

(إنها الأيام يا روحي المتجلّية في كيان الأرض الطيبة، إنها قصةٌ جُبلت من أديم الأرض وقطرات دمٍ قاني، إنها أغنية جديدة لا يسمعها و لا يغنيها أحد، كلمة لا يكتبها ولا يقرؤها أحد. فالعين التي تبحث عني قد أغشاها العمى، والثلج قد أمسى حجراً، والدم قد أمسى كبريتًا تقدح اللهب وتأججها في أحشائي. وأنا! أنا لا أعرف ماذا سأصبح؟! هل سأصبح درويشًا، ممَّ ام فرهادً؟ أم ماذا؟).

- وأنا ايضاً مثلك ياعزيزي لا أعرف ماذا سأصبح؟

- قد تصبح قصيدة أو قصة قصيرة جداً، يكتُبها كاتبٌ ساخر على ورقةٍ باليةٍ و ينساها على رفوف الإهمال و النسيان! وربما تصبح لوحة زيتة تعوزها الألوان الصحيحة، أو تصبح غمامة خريفية عابرة أو كراكي مهاجر من القوقاز إلى حران... وربما تصبح أغنية قديمة جداً تماماً كهذه الأغنية:

أقترب فارسٌ من مضارب القبيلة

يمطتي سهوة فرسٍ أصيل

في يديه متراسٌ مطعم بالفضة

يتنطّقُ سَيفاً قبضته من ذهب

شامخٌ،

هامته لا تنحني أبداً

الكل في عجبٍ من أمر هذا الغريب!

يستفسرون: «من هذا الفارس هذا الغريب؟»

الفارس:

- أنا «درويش، لنجدتكم أتيتُ.

قد أتيت ياعدولة

فأنا المطيع وأنا المجيب

أئتِني بفنجانٍ من قهوة الدم،

كوني مليكة روحي ياعدولتي»

عدولة:

- «كنت أعرف بأنك ستأتي

فهل لي الاشتباه بقدومك؟

لا والله!

فلا مثلك فارسٌ في كل الأرجاء.

هاك، أشرب قهوتي

و كنْ مَلِكاً على مملكة قلبي»

الفارس:

- «وكيف لك الظن ياعدولة

فأنا أبد الدهرِ لحبنا أكنُ كل الوفاء

فالله لو أفديتُ بروحي

لما تخاذلتُ عن حبك ياعدولة»

عدولة:

«آهٌ يا عمري و نور مقلتيي

قد عاهدتُ ألا أكون لسواك»

الفارس:

- « ما خذلتِني يوماً يا حبي

ففي سبيل عينيك ألقى المنية...

...»

- لماذا لا تتابع يا هفال ريناس؟

- لقد تعبت يا هفال مظلوم أرجو العفو...

- كنتُ أتمنى أن تسرد القصة إلى النهاية.

- ربما سأفعل ذلك في المستقبل.

- و لكن هل ما تزال عدولة تنتظر درويشها؟

- أعتقد ذلك، فهي لا تخون؛ أصيلة و نقية...

- ولكن كيف سيكون هذا الدرويش (الفارس)؟ أين هو و لماذا لا يأتي؟ لماذا؟

- ليس درويشٌ واحداً! بل قل المئات من الفرسان، الكل في سباقٍ ليرتشفوا قهوة الدم من يدي عدولة المحملتين بالذهب! ألا ترى كل هؤلاء الشباب الذين يفعلون المستحيل لأجل أرضاء عدولتهم الكبرى...

- عدولتهم الكبرى!! ماذا تقصد؟ لم افهم!

أبتسم ريناس ببراءة الملاك وغموض الحكيم، أخذ قبضة من التراب الأحمر و راح يشمها قائلاً: «ألا ترى؟» (مُشيراً إلى حفنة التراب التي في قبضته). بدى على مظلوم و كأنه يرى التراب للمرة الأولى في حياته و ربما كان يراهُ الآن ببصيرة مختلفة جداً:

- عدولة تنتظر درويشها، الابدي! نعم إنها تنتظره و ستبقى...

أستغرب مظلوم من الغموض الذي تحدث به ريناس. لزم الصمت و راح يتطلع ملياً إلى القمة الحمراء المحيطة بِـ (جبل أورانوس) الهادئة بطقوسها الأبدية في توديع الشمس الوالية خلف الافق الأحمر، كلوحة فريدة في الكون تعبر عن عرسٍ عظيم لـ إسيس و ملاك الحب والامل في قمم آلهة العوالم.

- « أنتِ أيتها اللوحة السحرية النابضة بالحياة، كرماً منكِ، هلا تفضلتِ علينا بعبقٍ من رائحة التراب وحمرة الشمس الخريفية الناعسة، أرفعي طرحتكِ الوردية و أرينا وجهك العذب، أسمعينا ترانيم صوتك الحنون وأغدقي علينا نور عينيك الناريتين. أفردي ذراعيك لنا- يا عدولة، ضمينا بكل قوةٍ إلى حضنكِ الدافئ حتى نستشعر الإندماج الكلي في كيانٍ واحد و روحٍ واحدة. ربما تأخرتُ كثيراً عن

ملاقاتكِ، لم أكنُ أعرف سبيل الوصول إليكِ... لكني عرفتُ الآن الدرب الذي سأسلكه لملاقاتكِ، مُلاقاتُكَ الّتي لا فُراق بَعدها أبدا».

* * *

أعادهم الصوت القادم إلى الواقع بعيداً عن عوالم عدولة و زفاف أسيس وقمم الآلهة... كان المنادي ينادي عليهما:

- هفال ريناس، هفال مظلوم! أرجو أن تسرعا بالقدوم، فالوضع خطير جداً!

- ماذا حدث يا هفال؟ ماذا هنالك؟

- لا أعرف... لكن أعتقد بأن العدو باغت المشفى... و.

هرعا إلى معسكر الفصيلة بسرعةٍ فائقةٍ ليستوضحا الأمر. فاتضح لهما بأن قوات العدو قد اكتشفوا مكان المشفى الخاص بالرفاق الجرحى، و تهاجمه بهدف دخوله. كان يجب عليهم التدخل بأسرع وقتٍ ممكن. أمر قائد السرية جميع الرفاق بالإلتفاف حول قوات العدو و منعه بإي ثمنٌ السيطرة على المشفى.

عيّن آمر السرية قادة المجموعات و أوكل إليهم مهامهم و أمرهم بالأنطلاق إلى أماكن و نقاط محددة مسبقاً لمثل هذه الحالات.

- هيا يا هفال مظلوم، خذ مجموعتك و أتجه فوراً إلى قمة (تحطى سور) الصخرة الحمراء، وقم بتوجيه الضربات على ميسرة العدو، و قم باشغاله و تشتيت قواته...

- نعم، سوف أذهب حالاً يا هفال. (أنتظريني ياعدولة... ها أنا قادم لملاقاتك).

* * *

بركان النار و الموت كان يثور ويفور و يزبدُ غضباً في قمة الصخرة الحمراء (تحطى سور)، القمة التي تضدرجت ببرك الدماء الساخنة! والمعركة تدور كـ راحة الطاحونة فوق رؤوس الخلائق، من جهة يدافع الكريلا الجرحى عن أنفسهم بكل ما يمتلكونه من إرادة وعزم كي لا يقعوا بين براثن هذا الوحش الهمجي و الذي يسمى(آلة الحرب التركية) مفضّلين المنية الشريفة كشهداء على الأسر! و من جهته يهاجم العدو بكل شراسته و همجيته البربرية على عدد من الجرحى المقعدين بالإضافة إلى الرفاق الذين أتوا لمساندة وحماية المشفى و الجرحى.

الكل في مضمارٍ السباق، متجهين نحو الثالوث الأبدي، لا مفر لأحد في هذه الطبيعة الوحشية من الثالوث الأبدي بتاتاً، فالحياة كالحسناء الجالسة على عرشها العاجي في العلا، لا تتنازل لملاقاة حبيبها بسهولة، فهي متكبرة بقدرٍ ما هي عَليه من دلالٍ و جمال خلاّق. عدولة أمست الحسناء التي تحضّر القهوة لفرسانٍ أبوا إلا أن يكونوا مُلوكاً على عرش قلبها العظيم. عدولة تنتظر درويشها الأبدي (حسب قول ريناس). كان إله الموت و الحياة السفلية قد حوّل الأرض إلى مرجل الجحيم يغلي دماً. والحرب، هل هي حرب للحياة أم حرب الموت؟ طالما اختلطت الأمور على الناس الهامشيين ومن لا يدرك الفاصل بينهما لن يفهم لما هي الحرب!

معاركٌ على هذه الشاكلة، مختلفة بكل جوانبها عن العمليات المخططة، خاصةً إن كانت مفاجئة و مباغتة، ففي هذه المعارك تختلط عليك الأحاسيس و المشاعر و تتقاذفك شتى رياح العواطف ما بين النبيلة و الوحشية، الخوف و الجرأة، الإباء و الخنوع ووو، إنها محك الشجعان و ميدان اظهار الجوهر و هي التي تسقي الفولاذ و تجعله

فولاذاً عن حق. وقبل أن تنقشع اللعبة عن نتيجتها النهائية، حتى كان الثالوث الأبدي قد فرز لاعبيه على أعمدته الرئيسة.

أ- دخلوا في الحرب!

ب- دخلوا ولم يخرجوا!

ج- دخلوا، أستشهدوا، أنتصروا وعادوا للحياة من جديد!

القمة الحمراء بكت دماً، ذرفتْ دمعاً وحرقت حزناً و وجداً على أبنائها، لوحة جديدة أرتسمت على رقعة الصخرة الباكية، ألوانها دمٌ مرسوم بريشة الموت ونقوش النار الفولاذية، جثث هامدة تركتها الروح و الفكر... فخاتمة قصصهم كانت هنا، نتيجة قطعة صغيرة جداً من المعدن أخترقتهم، فذهبت أحلامهم أدراج الرياح العاصفة و المجنونة! نعم، الكائن الذي انهمكت أمنا الطبيعة في إنشائه و خلق كينونته أعوامً عدة، و صرفت طاقاتها و عناصرها على نموها، أنتهت ببساطة بين مخالب هذا الوحش الأحمر...

أنسحب العدو تاركاً ورائه العار، الخيبة، الفشل وأشلاءٌ (جنوده) ستتفسخ تحت هجمات الدود والفئران الجائعة، تركوا ورائهم علامات الهزيمة و الاندحار، أستشهد اثنين من الرفاق الجرحى وأثنين من الرفاق الذين أتوا من الفصيلة للدفاع عن المشفى... و لم يسمحوا للعدو بالسيطرة عليها.

- وماذا حدث أيضاً يا ريناس؟

- كنا حزنى، صخور القمة الحمراء بكت دمً على حزننا الذي لا يرثى له، نعم، الكل كان حزيناً على أعزائنا الأربعة... آه!

- وماذا حدث لهفال مظلوم؟

- كان يفترش الأرض الخشنة، كنتُ أعتقد بأنه يمزح معنا أو فقد وعيه أثر ضربة ما، أو أي شيء آخر! لا أعرف ماذا كنتُ أظن حينها، لا أعرف! لكن لم يكن مزاحاً؛ كان جاداً حينها! كنت أنتظر بأنه سوف يقوم الآن، سوف يتحرك ويفتح عينيه من جديد. أنه حي، نعم أعرف ذلك سيصحو الآن من غيبوبته المؤقتة، فهو لا يموت لا يموت.

حلّ الليل كطعنة من خنجرٍ باردٍ على قفى الرأس، ولم يصحو بعد، حلّ النهار كبشرى مشؤمة و لم يصحو بعد، بكينا، تضرّعنا، تريّثنا ولم يصحو... لم يصحو، لم يصحو! كان يتشبث بالأرض وكأنه في ليلة زفافه الأولى، والأرض تشبثت به كعروسة تخاف من فقدان عريسها! كان كل من مظلوم و الأرض العذراء قد اندمجا معاً في روحٍ وكيانٍ واحد.

- ها قد ألتقيت بعدولتك، أحضنها بكل قوتك يارفيقي، لاتتركها، لا تتركها.

- هل أستشهد مظلوم ياعزيزي ريناس؟

- هو الوحيد الذي بلغ أوج الثالوث. فقد أضحى وطناً وثالوثاً وعاشقاً وبكاءً لاينتهي.

- و قصة الفارس (درويش) مع عدولة الحسناء؟

- قد يأتي يوم و أغنيها لك... لكن عدني أن تكتبها.

- أعدك بذلك...

لحظات لا تنسى

(الهواء خانق، تشعرُ في هذا الجو بالكآبة و الضيق و الإنزعاج. الجدران الرطبة و رائحة العفونة النفاثة و العتمة التي تعمي العيون الناعسة و ترهقها، تتكالب جميعها في إضفاء تعابير على لوحة من عالمٍ غابرٍ في القدم و غائرٍ في المجهول، لوحة العالم السفلي).

مكانٌ ضيق للغاية، إن أردنا تشبيهه، فلا مفر من وصفه بالقبور الإسطورية القديمة! الفرق الوحيد هو أن ساكنيّ القبور الإسطورية يدخلونها بغير إرادتهم و لا يخرجون منها أبداً، أما هؤلاء (المتكوّمون على أنفسهم، الطّامرون رؤوسهم بين ركبهم المتعبة، الغارقون في نومٍ متوتر و منهك) هو أنهم دخلوا بملئ إرادتهم في هذا الجحر الباطني! جُحر؛ نستطيع أن نسميه بالقبر أو حسب المصطلحات العسكرية، بالاستحكام الباطني.

قبل ساعتين وصلوا ها هنا، فلجئوا إلى هذه الحفرة الباطنية القديمة إضطرارياً؛ الفجر كان على وشك البزوغ، والمنطقة (البيضاء) خطيرة جداً على مفرزة كريلا(أنصار) صغيرة و معدومة من كل وسائل الدفاع القوية، و بعيدة كل البعد عن السرايا الكبيرة و المناطق الحمراء. كانوا قادمين من أيالة آمد(دياربكر)، متجهين صوب المناطق الجنوبية في مهمة إرسالية.

قائد المفرزة هو هفال سرهلدان، و سرهلدان هذا، لديه حكايات لا يملُّ من سماعها أحد، عن الحياة في هذه الجحور الباطنية في المناطق الواقعة تحت سيطرة قوات العدو. هذه المناطق كثيراً ما تكون جرداء عارية من الأشجار و الهضاب العالية و تصبح منبعاً للحكايات

العجيبة، الطريفة و الخطيرة في الوقت نفسه. عندما يركن سرهلدان إلى فيءٍ احدى الاشجار، يلف سيجارة تبغ و يرتشف الشاى بروية و تأن، و بين دخان لفافة تبغه المتصاعدة و ما يتخللها من رشفات الشاي الاسود يسرد أحاديثه الشيّقة عن حكايا هذه الجحور المثيرة.

* * *

ها هم الآن رفاقه، يغطّون في نومٍ عميق، محدثين شخيراً و أصوات مزعجة للغاية، و لكنهم من شدة الأرق، لا يبالون بهذه الأصوات. الجحر مهجور، لم يُستخدم منذ أمد طويل، و هو على مقربة من معسكر العدو؛ رغم ذلك فقد اضطروا للمكوث فيه حتى يسدل الليل سدول العتمة على الكون، حينها يخرجون من الجحر و يتابعون سيرهم نحو الجنوب.

- « يجب أن نسرع يا رفاق، و إلّا فإنّنا لن نقطع المنطقة الواقعة تحت حاكمية العدو قبل الفجر».

كانوا يحثون الخطى، كي يخرجوا من هذه المنطقة؛ لكن التعب و الأرق كان قد أخذا منهم مأخذه، فباتوا لا يقوون حراكاً، خاصّةً و أنّ أحد الرفاق كان جريحاً في خاصرته و لا يستطيع أن يستعجل الخطى كالرفاق الآخرين، و إحدى المقاتلات كانت مستجدة بين قوات الكريلا، و هي بنت المدينة غير معتادة على حياة الحرب الشاقة في الجبال وعلى المسير لمسافات طويلة في الطرق و الدروب الوعرة. هذه الأسباب مجتمعة كانت تبطئ من حركة هذه المفرزة الصغيرة المؤلفة من خمسة أشخاص (رفيقتان و ثلاث رفاق).

- ولات: يا هفال سرهلدان، أعرف ملجئاً باطنياً قريباً من هنا، نستطيع أن نلجأ اليه.

- سرهلدان: و كيف لنا أن نعرف من أن العدو أو أحد الخونة لم يكتشفه بعد؟

- ولات: نستطيعُ أن نُعاينهُ، فلا ضرر من ذلك، ثمّ إنّنا لا نستطيع اجتياز هذه المسافة الطويلة بهذه الحالة المرثية.

- سرهلدان: لا مجال لإضاعة الوقت، هيا بنا إلى الجحر و أرجو أن يكون صالحا.

الجُحر، كان قريبا من احد المراكز العسكرية للعدو، لذلك يبدو إنهم لم يشكّوا في هذا المكان الأجرد على الإطلاق، كان من الواضح بأنه سليم من الناحية الأمنية، أو هكذا كانوا يَتمنّونهُ. بعد أن سحبوا الحجر الذي يسد منفذ الجحر انزلقوا فيه واحداً تلو الآخر، بعدها سحبوا السدادة الحجرية إلى منفذ الجحر من الداخل و باتوا في باطن الأرض، الأرض الكريمة في إغاثة أبنائها المرتمين في حضنها الحنون. بالرغم من رائحة العفونة و الجو الخانق الطاغي على هذه الأوكار الباطنية، إلا إنها توفر السلامة والأمان لمفرزات الكريلا الصغيرة العاملة في المناطق السهلية و القريبة من الأحياء السكنية. كان عليهم ألا يخرجوا من هذا الجحر حتى المساء و بعدها لكل حادثٍ حديث...

- سرهلدان: يجب أن تتنبهوا يا رفاق، فلا داعِ لإصدار الأصوات او الحركات أبداً، فالعدو قريب جداً من هنا- كما تعلمون، لذا يجب أن نكون في منتهى الدقة و الحذر و خاصة المناوبين.

كانوا يكتفون بهز رؤوسهم بإيماءة تنم عن الموافقة على هذه التحذيرات الضرورية. كان هفال كندال في رأس قائمة الحراسة، إنها ليست حراسة بالمعنى المتعارف عليه، إنما دوره في التنصت عن طريق

اللاسلكي لقنوات العدو اللاسلكية، و كذلك التنصت على الأصوات في الخارج حتى يستدرك التحركات في الوقت المناسب.

* * *

خمسة أشخاص راكنين إلى هذا الملجأ الضيق الذي لا يتسع في الظروف العادية لشخصٍ واحد؛ هذا و إن غامر ذلك الشخص و آوى إلى هذا القبر العفن! لكن ما الذي يخبأه الزمن من أحداث و مصائر لهؤلاء الراكنين في بطن الارض المتعبة؟ هؤلاء الذين لا يجدون مسافة شبرٍ واحد ليمدوا أقدامهم المنهكة و يريحوها قليلا. رغم أنهم هم أصحاب أرض ما مثلها في كل البقاع، أهذه هي العدالة السماوية التي تحرم أصحاب هذه الجبال و السهول الواسعة من التمتع بجزءٍ ولو بسيط من نعمته؟ أم انها الموازين الجديدة لآلهة صغار تتحكم في عالمنا السائر نحو اللاشيء..؟!

كان كندال يتطلع إلى وجوه رفاقه في الظلمة، وهم نيام و على وجوههم لمسة من اللمسات التي نشعر بها في سيماء اللوحات الزيتية الموجودة في الكنائس و الأديرة العريقة، لمسات من الحزن الذي يشوبه خليط من الصفاء و الرضى يطغى على وجوههم المرهقة، تماماً كما لوحات القديسين. كانت سيول العرق قد أوجدت لنفسها أخاديداً على صدغ هفال سرهلدان، الذي كان يصرّ بأسنانه، مصدراً صوتاً يشبه زمجرة (جنازير) الدبابات، و هفالة دجلة (الجديدة في حياة الكريلا) كانت تتنفس بتوتر و صعوبة بالغة، مصدرة بين الحين و الآخر أنيناً عميقاً أشبه ما يكون بلمسة خاطئة على وتر (الطنبور)، فقد كان يبدو من تنفسها مدى الصعوبة التي تعانيها في التعود على هذه الحياة القاسية.

راح كندالٌ يحاول تمضية الوقت، مستخدماً كل الوسائل و الأساليب

التي بحوزته، حاول استرجاع مقطع من أغنية محلية قديمة، كان والده يرددها بصوته الأجش في الليالي الصيفية الحارة، لكنه ما لبث أن ملّ منها، و راح يفكر في رفاقه الذين بارحهم قبل مدة، وأصبح يعد أسماءهم و ينعت كل واحد منهم بنعت يشبه شكله أو حركاته و شخصيته...

ابتعد عن تلك الأجواء العاطفية، وفضّل الغوص في قنوات اللاسلكي متنصتاً إلى مكالمات المعسكرات و المخافر المختلفة فيما بينها؛ بعضهم يطلبون حمولة من الخبز و البعض يبذخون في إعطاء النصائح و الأوامر المختلفة لعساكرهم المتواجدين في المهمات، و كثيراً ما كان هفال كندال يسخر من تلك الأساليب الخطابية الجافة التي تشبه الأصوات الصادرة عن ارتطام ملعقة معدنية بقالب من الجليد القاسي. أثارت إحدى القنوات انتباهه، راح يستمع إليها بكل ملكات حواس سمعه الحساس، كان الصوت واضحا جدا، بالإضافة إلى أن النقرات الضوئية الخمس على شاشة الجهاز كانت تمتلئ أثناء المكالمة، و هذا يعني بأن الإرسال صادر عن مكان قريب، أي من المعسكر. و يبدو أن كلا الجهازين قريبان من المكان، مكانهم هم. راح يصيغ السمع إلى الخارج، كانت اصوات خفيفة صادرة في الجوار، و لكن ماذا عساها ان تكون؟ دون أن يضيّع وقته في التساؤل و الإستفسار، أيقظ هفال سرهلدان...

- هفال سرهلدان، سرهلدان... سرهلدان، قم هفال... استيقظ.

- نعم، نعم. لمَ توقظني يا هفال؟ (همّ أن يعود إلى نومه من جديد، لولا إصرار كندال على إيقاظه).

- يا هفال سرهلدان، سرهلدان.

- نعم، نعم، ماذا هنالك؟

- أعتقد بأن أحدهم يتجول في الجوار لا أعرف من يكون..!

رفع سرهلدان رأسه قليلا، كي يتسنى له الإستماع إلى العالم الخارجي، ظل على تلك الحالة برهة من الزمن، حتى تأكد من وجود الأصوات الصادرة في الجوار و قربها من مكمنهم هذا.

- سرهلدان: يجب أن لا نصدر أي صوت او حركة، حتى لا ينكشف مخبأنا هذا...

حركت هفالة ديلان رأسها، تعبيراً عن موافقتها لتحذيرات قائد المفرزة... خمن سرهلدان بأنه ليس من المعقول تواجد الرعيان في هذه المنطقة العسكرية، فمن المؤكد بأن الجنود يتجولون في الجوار. كان يبتهل في قرارة نفسه بأن لا يكونوا قد اشتبهوا بوجودهم في هذه المنطقة؛ و في الوقت نفسه كان يمرر بيديه على الرشاش الرابض على فخذيه المتكومتين، وكأنه يطبطب على رأس طفلٍ عزيز، مطرق الرأس شارده. كان يستشعر الأمان من رفيقه -الصغير حجماً والكبير فعلاً وناراً. الأصوات تزداد وضوحاً وقرباً، راح سرهلدان و ربما الرفاق الآخرين أيضاً يتسائلون فى سرهم: «ما الذي سيحدث الأن، كيف يجب أن نتصرف؟».

الدور الحاسم في مثل هذه اللحظات العصبية يقع على عاتق القادة والآمرين، فهم مجبرين على التفكير والتخطيط السليمين لإنقاذ مقاتليهم من الأوضاع الحرجة، ففي مثل هذه الحالات تكون أعين المقاتلين مصوبة لوجه القائد، وآذانهم ترهف السمع، بأنتظار أوامره وتعليماته و تحذيراته.

* * *

كان سرهلدان يسرد حكايته تلك بهدوء و يقطع حديثه بين الفينة و الأخرى كي يرد السلام و التحية على الرفاق الذين كانوا يمرون بجوارنا و بعدها يعود من جديد إلى الجحر و تلك اللحظات العصيبة و الأنتظار...

راح سرهلدان يحادث نفسه صامتاً: « ماذا أستطيع أن أفعل الآن؟ ماذا؟ كيف يجب أن نتصرف؟ يجب أن نكون هادئين، فالأمر لايستدعي حتى التفكير به و الأرتباك، سوف يرحلون الآن إننا في مأمن، نعم نحنُ في مأمن و يجب أن أقنع رفاقي بذلك أيضاً».

- سرهلدان: يا رفاق... لا تهتموا بالأمر، إنهم ليسوا سوى بعض القرويين و الرعيان؛ سوف يغادرون بعد قليل.

- ولات: لا أعتقد أن يكونوا قرويين(وأشار إلى مصدر الصوت)! فمن المضحك الإعتقاد بتجول الرعيان بجوار المعسكر! أنا متأكد بأنهم جنود ليس إلا...

- سرهلدان: كلا يا هفال، إنهم ليسوا سوى بعض الرعيان، و لا داعيّ لتضخيم المسألة و الإرتباك (حاسماً الأمر).

- ولات: متى أصبح الجنود رعياناً يا هفال؟! (مبتسماً).

لم يستطع سرهلدان أن يدحض حجة هفال ولات، لأنه يعرف المنطقة جيداً، ولا يمكن ثنيه عن رأيه و قناعته، فهو خبيرٌ في النواحي الحربية... وقد كان على حق في ذلك، ولكن يجب أن يتم الحفاظ على الهدوء وضبط الأعصاب؛ لكي لا يثار هياج الرفاق سكت سرهلدان على مضض، وهو يفكر في طريقة ما للنفاذ من أية احتمالات طارئة.

- سرهلدان: نعم يا رفاق! لنفترض بأنهم جنود، وهم يتجولون في الجوار، يجب أن نحتاط لكل شيء...

وبحركة مكانيكية، صوب سرهلدان نظره على وجوه الرفاق، و راح يقرأ التعابير المرسومة على تقاسيمهم. الكل في تساؤل عن المصير: « هل هي النهاية..؟ أم ماذا ياترى».

منذ البداية كانت تقاسيم وجه هفالة دجلة قد آلت إلى الصفرة و باتت تعزف على توتر مرتبك، وينتابها رعشة خفيفة بين الحين والآخر. أما هفال ولات-الجريح- فلم يكن مكترثاً بالمسألة، كونه كثيراً ما مرّ بمثل هذه الحالات، فهو منذ مدة طويلة يعايش الموت والحياة في الآن نفسه، فأمثال ولات قد تآخوا مع المنية حتى أنهم باتوا يعتبرونها جزءاً لابدّ منه في هذه الحرب الضروس.

كانت أصوات الأقدام تقترب أكثر فأكثر، فلم يعد للشكِ مجال من كونهم جنود العدو يفتشون في الجوار. بدأت قلوب المقاتلين تخفق سريعاً، وصدورهم في أرتفاع وهبوط متوترين. خمس من الرشاشات كانت جاهزة لنفث غضبها الناري والفولاذي، والأجساد كانت مستعدة للوثوب في أية لحظة، والدماء كانت قد ارتفعت إلى الأجزاء العلوية من الجسم، كل هذا والأصوات تقترب من مكان الملجأ رويداً - رويداً...

* * *

(فرصة الخروج من الجحر و الفرار ابتعاداً إلى مكانٍ آخر شبه مستحيلة؛ فالمنطقة جرداء تماماً، لا حواجز ولا عوائق جغرافية مساعدة على التمويه، أي إذا خرجنا فأن النهاية الأليمة ستكون في انتظارنا). كان سرهلدانٌ يفكر بلا انقطاع، جاب بخياله الخصب عناوين التكتيك الأكثر ملائمة في مثل هذه الأوضاع، حتى أسعفته فكرة هينة ومنطقية: « نحن لا نعرف سبب تواجدهم هنا، ولا توجد لدينا أية معلومات عن عددهم ونوعية مهمتهم، وإذا كانوا يقومون

بالتمشيط من أجل موضوع آخر، فإنّ الأُمورَ ستسير على ما يرام و لن نتحرك؛ لكن، إذا كانوا تلقوا إخبارية من أحد العملاء، وهم الأن يتعقبون آثارنا ويشكّون بوجودنا هنا، حينها سنحاول قدر الإمكان الخروج- تحت تغطية صيلات الرشاش- من هذا الملجأ، وبعدها الإتجاه نحو التلة القريبة. ويجب أن نضع نصب أعيننا النتائج الوخيمة في هذه الحالة ».

- سرهلدان: هل أنتم جاهزون يارفاق؟

- كندال: لأي شيء يا هفال سرهلدان؟ ما الذي تنوي فعله؟

تدخلت هفالة ديلان قائلة: يجب ألا نقوم بأية مغامرة متهورة...

تفحص سرهلدان بيديه الحجر الذي يسد باب الاستحكام، متفقداً متانته، و تيقن من رخاوة وهشاشة محيطه الترابي، هذا يعني بأن احتمالاتُ سُقوطِه وارِدةٌ في الحسبان بشكل غير قابل للجدال. مدّ سرهلدان يَديهِ إلى جُعبتِهِ، وأخرج منها الرمانة، سحب مسمار الأمان، وشد قبضته المتعرقة عليها، و راح يسند بكلتا يديه الحجر الذي يسد باب الإستحكام منتظراً بتوتر اللحظة الحاسمة.

(خمسة قلوب نابضة بالحياة والعنفوان، تنتظر المجهول والخطر الرابض بهم، إنهم أيضا يحبون الحياة السعيدة والحرة، يحبون الركض كما يحلو لهم في المروج القريبة من قراهم النائية، وهم أيضاً لديهم أمهات تنتظرهم خلف هذه الجبال، في مكان بعيد جداً، وهم أيضا لهم تاريخ وذكريات وأحلام وردية، لهم أحزانهم و أهدافهم وحكايات مع الخبز الجاف و نثرات الملح والكرز البري. أمن المعقول أن تطوى صفحة حكاياتهم بهذه البساطة؟ فإن ألعابهم الكبيرة تنتظرهم في الجنوب... حيث ترحل أسراب الكراكي و السنونو كل خريف).

كانت يدا سرهلدان ترتجفان من تأثير الضغط العنيف على الرمانة التي في قبضته وكذلك إسناده لسدادة الجحر بيديه المتعبتين. أصوات الجنود كانت على قاب قوسين من مكان الجحر، بل باتت عند الجحر تماماً... و فجأة حدث ما كان يخشاه سرهلدان طوال الفترة العصبية هذه، فكان يداري عدم حدوثه، ولكن حدث ما حدث، وكان يحاول السيطرة على الوضع بأسرع وقتٍ ممكن؛ فالرفيقة دجلة -التي كانت متوترة طوال الوقت- فقدت الأمل في النجاة، لم تعد قادرة السيطرة على نفسها، فخانتها أعصابها ولجأت إلى الحل الاكثر بساطةً، بل الأكثر جنوناً وتهوراً، أخرجت رمانتها اليدوية من الجعبة، نزعت مسمار الأمان وعملت إلى تفجيرها داخل الملجأ! كانت تريد أن نموت بقنابلنا لا أن نموت أو نقع أسرى بأيدي العدو؛ ولكن ذلك كان الجنون بعينه، فمهما جرى يجب ألا يفقد أي مقاتل الأمل أبداً، و أن يستغل الفرص حتى ولو كانت بحجم خرم الإبرة. لا محل لليأس في عالم الكريلاً... دُنياهم تعني قبل كل شيء الصبر و الأمل في أصعب الأوقات و أحلكها. جنّ جنون سرهلدان عندما رأى هفالة دجلة و قد أقدمت على فعلتها تلك... حاول قدر الأمكان الحفاظ على رباطة جأشه والتحكم في صوته:

- توقفي هفالة... ما الذي تفعلينه؟ هل جننتِ؟

- دجلة: وهل تريد مني أن انتظر - مكتوفة اليدين- حتى يأتي العدو ويمسكني من تلابيبي؟ كلا؛ أفضّلُ الموت على أي شيء آخر...

قاطعها بصوتٍ حازم:

- أقول لكِ بأننا في أمان، وسوف نتخلص من هذا الوضع بسهولة بالغة. ثم من العار أن نستشهد هنا، بدون أن نقوم بأية بادرة ولو ضعيفة للنفاذ من هذه الورطة.

- دجلة: وكيف سنتخلص من هذا الشرك؟ (كان صوتها أشبه ما يكون بصوت طفلة صغيرة على وشك البكاء).

- سرهلدان: آمنّي بنا، سوف ترين... لا تقلقي أبداً. الآن هيا اعطني القنبلة.

كان يجب أن يأخذ منها الرمانة وبعدها يكون لكل حادثٍ حديث تعجب سرهلدان من تلك البادرة التي صدرت عن هذه الرفيقة الجديدة (بنت المدينة) التي تضع الموت نصب عينيها على ألا تقع في قبضة العدو، فمن أين أتت بهذه الجرأة والإقدام؟

أقتنص سرهلدان الفرصة و أخذ الرمانة - الجاهزة للإنفلاق من يد دجلة، فبات عبء يديه ثقيلاً جداً، لا يستطيع أن يغيّر مكانه مع أحد الرفاق، بسبب ضيق الجحر، مضطراً على أن يقبض بكلتى يديه على رمانتين مخلوعتي الأمان، وفي الوقت عينه، أن يسند سدادة الجحر- لكي يحتاط لعدم وقوع أقدام الجنود في الجحر عندما يمرون عليه. لم تكن هي المرة الأولى التي يقع فيها مجموعة من الكريلا في مثل هذا الوضع العصيب، ولكن بالنسبة إلى هؤلاء، إنها المرة الأولى، وهو أشبه ما يكون بالعبور على الصراط المستقيم؛ إحتمالات النجاة ضئيلة، فإذا نجحوا بالخروج من الوكر سالمين، فإن نتائج الإصطدام مع قوات العدو(الذي يجهلون عددهم) قد تكون وخيمة وخطيرةً، لكن الموت في الخارج، أثناء الاشتباك مع جنود العدو و قتل أكبر قدر منهم، و الصراع حتى الرمق الأخير أشرف بألف مرة من ميتةٍ ضمن هذا الجحر اللعين.

(تعلمنا بأن الأسد لا يقع إلا في ساحات الوغى، البعير فقط تموت في الزرائب؛ ونحن كنا رفقاءاً أعزاء للموت السريع و الناري،

بيننا و بينه عشرات المواثيق و العهود التي لا يمكن نخثها و الحدو عنها... إنها طلقة صغيرة ولحظة ألم قصيرة جداً وبعدها لا يهم أي شيء!).

كان العرق يتصبب منهم بغزارة ونبضات قلوبهم تخفق بتسارع مضطرب. حدث ما كان يخُشى حدوثه، إذ وقع ثقل كبير على سدادة الوكر، ومن هول المفاجأة و إنهاك طرفي سرهلدان فإنه لم يستطيع أن يتحمل الثقل الضخم على السدادة. حدث كل ذلك في لمح البصر وفاجأهم سقوط رجل أحد الجنود بجذمته العسكرية الكبيرة حتى الفخذ داخل الوكر المتهدم... كانت المفاجأة صاعقة للجميع. وبدون أن يضيعوا أية ثانية، صرخ سرهلدان برفاقه:

- هيا... هيا يارفاق لنخرج الآن وبسرعة...

* * *

عندما وصل سرهلدان بحكايته إلى أكثر الأحداث إثارةً كان قد اشعل فينا لهيب الشوق و النشوة و أوصلنا إلى الذورة... توقف من جديد عن سرد الحكاية، خاصةً عندما قام بِرَجِ رشو(يسمي الكريلا إبريق الشاي بـ رشو! أي الأسود و هذا كنية عن لون الأبريق المتفحم من الخارج) و وجده خالياً يقطر قطراً، شحيحةٌ عن ملئ قدحه. ففي عالم الكريلا لا محل للأحاديث الشيّقة و المسامرات الطويلة بدون كاسات الشاي القاتم! فـ (رشو) يرافقهم في حلهم و ترحالهم... و سرهلدان واحد من المقاتلين القدامى و لا يمكنه الخروج من هذا الطقس اللذيذ. لا يسردون ذكرياتهم كوثيقة باردة مأطرة بقوالب و حدود، كلا! بل يتلذذون و يستمتعون بسردها و تكرارها مرارا بكل تفاصيلها. و ليس هنالك ذائقة أجمل من الاستماع إليها في سمرة مسائية حول جمرات النار و برفقة كاسات الشاي و حبات الجوز الطرية.

استوعبنا فوراً بأنه علينا تحضير إبريق شاي جديد و إلا لن نتمكن من سماع أكثر الفصول الشيّقة من القصة. وما هي إلّا دقائق حَتّى كان (رشو) يبكي و يصرخ غلياً و فرحاً و كان الغطاء يُزغردُ و يزبدُ و يصفّر لإخبارنا كي نمده بقبضة من ورق الشاي. بَعد أن وَضَعنا كاس الشاي أمام سرهلدان، و كعادته في كل مرة، استخدم غصن شجرة يابسة في تذويب السكر و كأنه يتمتع بصوت اصطدام الغصن داخل الكاس بمكعبات القند (مكعبات السكر)... بعد كل هذه الطقوس الطبيعية اللذيذة و العذبة، ابتسم لنا و همّ يسرد حكايته من جديد.

ما أن وقع الجندي حتى خاصرته في جوف الجحر حتى ألقيتُ بلكتا الرمانتين إلى الخارج، وما أن انفجرت الرمانتين، حتى وقع الجندي صريعاً داخل الملجأ، فقفزتُ إلى خارج الوكر ورحتُ أصرخ وأمطر حولي الرصاص بلا توقف وكان الرفاق الآخرين قد حذو حذويّ... فكلما خرج أحد من الجحر وهو يصرخ بأعلى صوته ورشاشته تزغرد في الهواء الطلق نافثة من فاه سبطانتها النار والفولاذ، كانت الرشاشات تلعلع بلا توقف و الرمانات تنفجر على بعد عشرين متراً منا. والعدو الذي باغته الهجوم، دون أن يعرفوا ماذا حدث ومن أين تأتي الرصاصات الهوجاء، انصعقوا و آثروا الأنبطاح على الأرض بشكل مضحك وهم يولولون ويصرخون بشكلٍ همجي: « إرهابيين.. إرهابي...» كان صوتهم يذوب في محيط أصوات زغاريد ولعلعة الرشاشات الغاضبة.

- سرهلدان: لا تتوقفوا هنا يا رفاق، هيا اصعدوا نحو التلة. هيا، سأقوم بتغطية الصعود. هيا.

- سوف ابقى بجانبك...

استدار سرهلدان ليرد على رفيقه(مبتسماً): نعم يا هفال ولات يمكنك البقاء بجانبي و ليصعد الآخرون حالاً.

بدأ الرفيقان سرهلدان و ولات بتغطية الانسحاب و صعود الرفاق نحو التلّة، و لم يتركوا الفرصة للعدو بتجميع شتاته ولم شمله، فالمبادرة كانت في يد الكريلا ويجب أن يستثمروها خير استثمار. بدأ بعض الجنود الذين عادوا إلى رشدهم بالرد عليهم دون تصويب، فبدأت اللعبة تكسب طابعاً جدياً أكثر فأكثر، فاللغة المتبادلة، باتت لغة النار والرصاص؛ الكلمات كانت رصاصاً والجمل قنابل والفقرات قذائف. هنا، القوي والذكي وصاحب المبادرة هو الذي يظفر على النجاح وينتصر فيما يصبو اليه. ولحسن الحظ أن المبادرة و المباغتة كانت لنا، وهذا ما جعلنا ننتصر في الجولة الأولى على العدو.

ما أن وصل الرفاق إلى قمة التلة حتى تخندقوا هناك وراحوا يرشقون العدو بالرصاص، ليغطوا صعود الرفيقين(سرهلدان و ولات) نحو التلة. بدأ الأخيران بالجري نحو التلة ورصاصات العدو تلاحقهم كالظل. بعد لحظات بات الرفيقان في التلة انخفض الخطر قليلاً عليهم لإنهم خرجوا من مدار سيطرة العدو وآلياته العسكرية المباشرة.

- « إنه الخلاص الأكيد يا رفاق! نعم لقد خرجنا من هذا الوضع الخطير كما تخرج الشعرة من العجين...»

* * *

كان عليهم تخطي التلة إلى الطرف الآخر، تمركز سرهلدان لأجل حماية انسحاب الرفاق، البقية الرفاق كانوا يقفزون من على صخرة عالية وبعدها يركضون عبر أخدود صغير تجاه أحراش قريبة. ما إن اجتازوا التلة حتى هرع سرهلدان بدوره متجهاً نحو الصخرة وقفز من

فوقها إلى الأرض؛ ولكنه فوجىء بشيء طري تحت قدميه، أدرك بأنه ليس بشجر أو حجر، وعندما تمعّن فيه، فإذا بأحد جنود العدو الذين باغتتهم المفاجاة ومن هولها وقع مغمياً عليه لا يقوى حراكاً. بدايةً اعتقد سرهلدان بأنه جثة هامدة، ولكن الجندي كان حياً ولا وجود لأية جروح في جسده، المسكين كان مصفراً كالليمونة الحامضة الضاربة إلى البياض، و علق لسانه حتى أنه لم يستطيع الصراخ من الألم إثر قفز خمسة من الرفاق من فوق الصخرة على بطنه، معتقدين بأنه ميت!!

تطّلع سرهلدان ملياً إلى وجه الجندي الغرّ والحائر، احتار في هذا الموقف الغريب، وراح يتطلع إليه بسخرية وقرف، والجندي يرتجف ذعراً وخوفاً من نهايته المرتقبة. كان مذعوراً و عيونه جاحِظَتانِ تكادان تخرُجان من مأقيهما، كان مشلول الحركة تماماً. لم يستدرك الجندي حينما قام سرهلدان وعاود ركضه نحو الغابة عبر الأخدود. خرجت المجموعة خلال مدة زمنية قصيرة من المنطقة الجرداء الواقعة في مدار المعسكر... حثوا خطاهم دون توقف مبتعدين قدر المستطاع عن المنطقة. أثناء السير أقترب سرهلدان من رفيقته دجلة قائلاً لها بشيء من الدعابة و الجديّة:

- ألم اقل لكِ لا تستعجلي يا هفالة دجلة؟ هل رأيتِ كيف انتصرنا عليهم؟ كنتِ تستعجلين المصير الّذي بإمكانِنا تغير مساره عندما نشاء و عندما نصرُّ على ذلك؟

لم تجاوب دجلة خجلاً من نفسها ومن الرفاق الآخرين، و أطرقت برأسها دلالة على أعترافها بتسرعها و أنّهُ-أي سرهلدان- كان على حق. رغم كل شيء كانت دجلة فخورة كل الفخر بحنكة رفاقها المجرّبين، الذين خرجوا بسلام من هذا الإمتحان الحياتي الصعب

والمميت، بخبرتهم و تمسكهم بأمل النجاح و التمتع بأشعة الشمس الحنونة بعد محنتهم مع تلك التجربة!

* * *

(مرت الشهور والسنون على تلك الحادثة، أستشهد ولات و كذلك دجلة في الحرب التي أندلعت في الجنوب. وحدثني الرفاق عن شجاعتها و إقدامها الهجومي، نعم لقد كانت شجاعة و ما زلتُ اتذكر لحظة محاولتها للأنتحار في الجحر... تلك المغامرة جعلتنا جميعاً مرتبطين بأواصر روحية وثيقة و حفرت في ذاكراتنا لحظاتٌ لا يمكن نسيانها، هكذا هي حياتنا، فالصعاب تقوينا و تصقلنا و تحولنا إلى فولاذ، و في نفس الوقت قلوبنا إلى فراشات و تزرع فينا عواطف نبيلة قلما نجدها في الأناس الآخرين ...).

أما بالنسبة إلى سرهلدان انجرح في قدمه باحدى المعارك و اضطر الأطباء إلى بتر رجله من الركبة... وهو لايزال يتذكر تلك المسيرة الصعبة، فبعد أكثر من ثمانية أعوام، عندما كان يرتشف الشاي و طرفه البلاستيكي ممدد بجانبه و هو يسرد هذه الحكاية لنا، أصابتهُ موجةُ ضحك عالية، قهقهة كان يهتز كل كيانه اهتزازاً عنيفاً... عندما سألته عن السبب، قال ضاحكاً وساخراً:

- لا اعرف لماذا لم يخطر ببالي حينها بأن أقتل ذلك الجندي المذعور؟ كان مضحكاً و فظيعاً، مضحكاً... ها ها ها ها...

{إنها مضحكة هذه الحياة... فللسخرية حصة كبيرة فيها، سخرية الأقدار وسخرية الآلهة وسخرية الموت وسخرية الحجارة وكل شيء يسخر ويُسخر منه، فلما لا اسخر أنا أيضا من هؤلاء الساخرين...}

أسيرٌ يهوى حياة الكريلا

كان يرتجف من البرد الشديد فتصطك أسنانه ألماً و برداً، كانت الدماء النازفة بغزارة من جسده قد أحالته إلى كتلة من الدماء المتجلطة و الأوجاد! لقد تركوه وحيداً يلقى القدر المجهول...

* * *

أنتهى كل شيء بلمح البصر، و كأن سيفاً قاطعاً قد أبتر مشاهد هذه المسرحية الساخنة بلا إنذار، و سادَ الهدوء المنطقة كلها، كأنها لم تكن قبل هنيهات معدودة مسرحاً للنيران و العواصف الوحشية و صراع أطرافٍ من البشر، همُ كل منهم هزم الخصم مهما كان الثمن غالياً، حتى لو كان الثمن عشراتٌ من الأرواح التي تُزهق على مناحر إله الحرب المتغطرس و المتعطش للدماء. رغم كل هذه المشاهد و العروض الفظيعة التي لا ترحم؛ إلا أنها تحوي الكثير من المآثر النبيلة بين دفتيها المطوية بعناية ربانية، و لكنه، هو بالذات، ما كان يتخيل مأثرة كهذه مخبأة بين تلابيب عباءة إله النار و الفولاذ؛ لو كان يدري لربما تغيّر القدر الذي كان يترقبه لنفسه.

أقترب منه مقاتل الكريلا بحذرٍ شديد، فأزداد خوفاً و فزعاً و شعرَ بدنو النهاية، فأغمض عينيه؛ فربما كان يحاول استدراك كل ما تختزن ذاكرته من صور و ومضات كانت طي النسيان و الإهمال حتى اللحظة تلك. ربما كان يريد أن يستدرك ما كان يجب استدراكه قبل الآن بزمنٍ عتيد، لكن! أدرك الورطة التي أوقع نفسه فيها عندما ركب

هوى جماعته و جاء معتدياً على هؤلاء، مهاجماً مع زمرته الرّابِية الّتي تحت سيطرة الكريلا. كان يكيل سيولاً من اللعنات و السباب إلى اصحابه الذين تركوه جريحاً، هاربين موليين الأدبار، دون بذل اية محاولة لإنقاذه.

أقترب منه المقاتل، فاحصاً، فأدرك بأنه جريحٌ لا زال على قيد الحياة. نادى رفاقه بصوتٍ عالي: « يا هفال شيار تعالَ! يوجد جريح للعدو هنا إنه يتنفس، تعالَ بسرعة...». لم يمضي وقت حتى وصل قائد المجموعة مع عدد من المقاتلين إلى المكان. بعد اتخاذ التدابير اللازمة، اقترب احد المقاتلين و قام بتجريّد الجريح من سلاحه و جعبته.

- هيا... تعالوا و احملوه إلى الخندق. (تكلم الآمر مع القيادة و أخبرهم بأسرهم لأحد جرحى العدو و طلب منهم ارسال طبيب لمعالجته).

كان رد القيادة كالمعتاد: « نعم نعم، سوف نرسل الطبيب حالاً... لا تقوموا بأي عمل متهور، هل فهمتم؟ لا تقدموا على أي شيء بدون علمنا.».

بعد نصف ساعة كان الطبيب يقوم بتنظيف جراح الأسير و من ثم قام بتضميد جروحه و حقنه مسكناً للألم. أما الرفاق الآخرين، فقد أشعلوا ناراً ليتدفأ الجريح الأسير بها.

* * *

بقي الأسير لدى الكريلا الذين كانوا يقومون بعنايته و كأنه فردٌ منهم. يطعمونه من طعامهم و يشربونه من ماءهم و يدثرونه

بمعاطفهم. بدوره، كان الأسير يتتبعهم بنظراتٍ حذرة فيها الكثير من التساؤلات التي تنم عن الريبة و التوجس و الفضول. كانت الألفة و التواضع التي يُعامِلُهُ بِها الكريلا، تشجعه على طرح بعض الأسئلة الخجولة عليهم، و كان يحاول أن يفضي بما يخالجه من أفكار و اشارات أستفهام! أثناء احدى وجبات الطعام الصباحية، حاول الأسير الجريح اقتناص الفرصة ليناقش مع الرفاق. دمدمَ بكلمات غير مفهومة ومترددة ما بين الرضوخ لاستعصاء اللسان و بركان خلجات الفؤاد، فقال : « كنتُ أعتقد بأنكم سوف تقتلونني و تقطعون رأسي، لكن، ها أنتم تعالجونني و تقدمون لي الطعام... سأكون صادِقاً بأنَّ كل هذا لم يكن يخطر لي أبداً !». ردّ عليه أحد المقاتلين: « أخلاقنا غير أخلاقكم، فنحن لا نقتل الأسرى مثلما فعلتم برفاقنا العزّل في(...) و تفعلونها مراراً... لا هدف لنا من قتل أحد، إنما أنتم الذين تأتون إلى هنا ساعيين بأرجلكم إلى حتفكم. نحنُ لم نأتي إلى عقر داركم، لم نعتدي عليكم، لم نغتصب أرضكم و لم نهتك عرضكم، لم نسرق زرعكم و لم نحرق اشجاركم؛ إنما أنتم تأتون غُزاة تسعون تريدون لنا الفناء و الثبور. بالمقابل نحنُ على أرضنا و ندافع عن شعبنا و نتصدى لظلمكم. بالرغم من ذلك، فإنّ قِيَمَنا لا تسمح لنا بقتل الأسرى؛ هذه قيمنا و يجب أن نبقى أوفياء لها دائماً».

انكمش الأسير خجلاً من كلام المقاتل و أطرق برأسه، و لم يجد ما يردّ به عليه... لكنه أظهر شعوره بالندم على مشاركته في هذه الحرب. بعد برهة من الصمت قال الأسير: « كنتُ جاهلاً تدفعني النقمة العمياء و كلمات قادتي، لكنني عرفتُ الآن حقيقتكم و نبل أخلاقكم و سوف أبقى وفياً لهذا الجميل أبد العمر.»

ردّ عليه المقاتل: «نحنُ ثوار الحرية، لنا مبادئنا و قيمنا و مقدساتنا... و لدينا قائدنا و معلمنا؛ فنحنُ مدينون لأفكاره و جهوده الكبيرة، لولاه لما كنا سنعاملك بهذه الإنسانيّةِ البَتّة!»

- «كان عليّ معرفة هذا كله قبل تهوري و مهاجمتي عليكم... يالللحماقة!»

بعد انقضاء فترة جاءت أوامر من القيادة العليا للجبهة، لإطلاق سراح عدد من الأسرى و ذلك ضمن حملة إظهار النية الطيبة والجدية في المطالب السلمية للعالم و كان من بين المقرر اعتاقهم، ذلك الأسير الذي كان عندنا.

* * *

كان العدو في المرصد المقابل للمرصد الذي نستحكم فيه، كان قد تم احضار الأسير إلى المرصد و ابلاغ قوات العدو كي يأتوا لأخذه؛ و لكنهم لم يقتربوا، كانوا يحسبونها خدعة و كميناً نصبناه لهم، بالرغم من كل المحاولات لم يأتوا لأخذ صاحبهم الأسير. بعد أن فقد الرفاق و كذلك الأسير الأمل في قدومهم، قال الأخير: « تباً للجبناء، سيئي النية، تركوني ورائهم جريحاً، والآن لا يأتون لأخذي!»

تقرر قيام أثنين من المقاتلين بإيصال الأسير إلى منتصف الطريق، فأخذاه و هَبطَا به إلى الوادي الذي يفصل بيننا و بين العدو، أوصلاه إلى الوادي و طلبا إليه متابعة السير و الصعود نحو المرصد المعادي، نظر الأسير ملياً إلى المقاتلين و الدموع تنهمر من عينيه، فقال: « لن أنساكم أبداً، لن أنساكم أبداً.»

كان الجميع يرقب الأسير من بعيد... وقف بصعوبة و نظر إلى عِنان السماء و إلى الغيوم المتجمعة فوق جبل قنديل؛ و استدار نحو

مقاتلي كريلا الذين كانا يصعدان مبتعدين نحو القمة، كان يشعر بعظيم الأمتنان لهم، و في تلك اللحظة غمره الحنين إليهم و رغبة عارمة في عودة أدراجه إليهم، فقد عاش أصعب اللحظات و كذلك اعظمها معهم، لمس الانسانية و المحبة لديهم، التواضع و البساطة، الايمان و الكرامة... كان المقاتلان قد ابتعدا صعوداً نحو القمة وهو استدار نحو مرصد العدو و راح يصعده و هو يعيش لحظات عاطفية مفرطة، كانت صور و مواقف آسريه و كلماتهم تتزاحم في مخيلته، و لا يستطيع التصديق بأنه اصبح حراً، و مِن جِهةٍ أُخرى يَشعر بالحنين و الامتنان لهم. كانت بذرة حبه للكريلا قد نبتت في مكانٍ ما بقلبه.

وصل الأسير إلى رفاقه و لكنه لم يكن كما قبل الأسر؛ كان قد تغيّر. بعد عدة أيام سمعنا بأن العدو قد اعتقل الأسير و أودعوه في السجن مع عدد من رفاقه الرافضين للحرب ضد الكريلا.

نحو القمة

الليل لباسنا، و النهار سباتٌ في أحضان الصخور الناتئة - هنا و هناك- كقرون الثيران الناطحة للسماء، نتوسد الحقائب الفائحة برائحة و طعم الملح و نكهة خبز التنور و الحبر، لا نلتحف السماء كما يدّعي الشعراء و المغنين؛ المشمع سندسنا، و الوشاح (الكفّية) استَبرَقُنا الذي ترافقنا في رحلة الشتاء و الصيف، حتّى أمسى جزء لا يتجزء من حياتنا اليومية.

حياتنا بسيطة غير معقدة و لا متراكمة أو مشتتة، لدينا روح التآلف و جوهر الصداقة، يومٌ هنا و يومٌ آخر في أية بقعة تصل إليها أقدامنا الجلودة، كجَلد أيوب المصطلى بنار الصبر!

كل شيء هنا ذو حدين، عدو لدود غدار، و في نفس الوقت صديقٌ حنون؛ الماء، النار، السلاح الذي يحمينا، يمكن أن يضع الخاتمة لحياتنا، و ديدن الأمر لكل ما يحيط بنا أو نحاط به.

(مثلنا كمثل الدم الذي يحوي الكثير من المواد و العناصر؛ لكل منها دورها و وظيفتها، و لأننا الدم، نتجول في شتى أنحاء الجسد، لنمده بالحياة و الحرارة و الطمأنينة)

* * *

كلما وصلنا إلى مضيق جبلي عالٍ، أو قمة من القمم السامقة نحو عروش الآلهة؛ يبدأ طنين و وشوشات أجهزة اللاسلكي تغزونا من الجهاز الصغير الذي بحوزتنا، مكالمات بين السرايا و الفصائل و نقاط المراقبة المنتشرة في أرض الله كالفراش المبثوث! لكل منها اسم و

شيفرة خاصة بها، هذا ما يجعلنا، نحن مجموعة الأدلاء، نشعر باللهفة و الحنين إلى رفاقنا، و نتحرق ولعاً للقائهم. نتلهف بفارغ الصبر، مكالمة من المقر المركزي؛ عل و عسى يوكلوا إلينا مهمة إرسالية إلى منطقة (بسطى بوتان)، كي نشبّع أعيننا من رؤية رفاقنا وآذاننا من أخبارهم و قصصهم التي لا تنتهي، عن العمليات، الكمائن، المناورات و كل ما مرت بهم من حوادث و وقائع مثيرة خلال الفترة المنصرمة.

عندما تصعدون القمم العالية، لا ترفعوا رؤوسكم و لا تنظروا إلى الأوج البعيد؛ لأنها تجعلك تشعر بالتعب و إستحالة الوصول إليها، لذلك يجب أن تحثوا الخطى، و تقولوا في انفسكم: «إنها قمة سهلة و سوف نصل إليها قريباً...»

كلما كانت القمم عالية و صعبة الوصول؛ فإن الوصول إلى قمتها لا يوصف. يكون الجهد قد أخذ منك مأخذاً، والعرق قد تصبب من جسمك، فحول ملابسك إلى قطعة قماشٍ مغسولٍ للتو.

القمة: و ما أدراك ما القمة؟ أرضٌ عالية، تحتها هاوية، فاغرة فاهها كالتمساح، لكل الصاعدين نحو الأوج، إياك و السقوط، ستصبح كالبطيخة المنفلقة قبل ابتلاع التمساح لشظاياك المهروسة.

لما تصلوا أعلى قمة في المحيط، تشعرون بفرحة عظيمة، فرحة تنبع من المكامن الدفينة والساحقة في تلابيب التاريخ التليد؛ تاريخ أقدم من فلك نوح وعصا موسى... تأملوا حولكم، العالم كله في أسفلكم الآن، المدن البعيدة، تلألأت المصابيح السعيدة لأحزان أهلها والطرقات الملتوية كأفاعي الماء المرسومة على صفحة الطوبوغرافيا، و السهول المبرقعة كرقعة في مملكة الشطرنج، المفروشة على الأرض و الغيوم التي تزحف في الوديان تحت أقدامكم. العلو عظمة؛ من العظيم

و أنتم تراقبون العالم وهو رابض تحت بصركم و كأنكم في فلكٍ طائر... جربوا أن تصعدوا القمم العالية في يوم من الأيام ستشعرون بنفس ما نشعره الآن!

أمامكم الكثير من القمم و الوهاد السحيقة؛ صعودٌ و نزولٌ على التتالي، إنها الحياة: صعودٌ و هبوط و صعود و...

* * *

- بروار، بروار... بروار (أفاقني صوت المنادي على اللاسلكي من طقوس تأملاتي في محراب الإعتكاف اللازوردي. كان الجهاز ينادي بصبرٍ و تأن «بروار بروار...». أجبتُ:

- نعم، نعم. بروار معك، من المنادي؟

- أنا سيبان، هل تسمعني يا بروار؟

- نعم... اسمعك.

- أين كنت يا هفال؟ لم أترك تردد إلا و بحثت عنك.

- كنا نصعد القمة، وصلنا للتو إلى نقطة (البطاطا)!

- حوّل إلى قناتنا.

و ذهبنا إلى قناتنا المحددة مسبقا.

- بروار، لدي رسالة مشفرة لكم: (يوجد عدد٧. في . ق٣ . الشعر طويل . ك/٢٠). هل فهمت يا بروار؟

- نعم، لقد استوعبت الرسالة. هل تقول شيئا آخر يا سيبان؟

- كلا، أشكركم و أتمنى لكم التوفيق و النجاح.. إحتراماتي.

ما إن فرغت من المكالمة مع سيبان، حتى هرع الرفاق إليّ والتساؤلات تقدح من عيونهم، أخبِرنا يا هفال، ما الذي يريده منك المركز؟ هل هي مهمة جديدة لنا؟

- احذروا يا رفاقي الأعزاء، أننا الآن منطلقين إلى...

- إلى أين يا هفال؟ (كان الرفاق يتسائلون بلهفة و فرح شديدين)

- أيها المراسلون، إننا الآن منطلقين إلى... إلى(بسطى).

كانت فرحة الرفاق عظيمة، و أكثرنا فرحاً هو هفال شيار. سألناه عن سبب فرحته الكبيرة برؤية المنطقة، اجاب قائلاً: «رفاقي، دفترُ مذكراتي مُخبّأ في (بسطى)، سوف تسنح لي الفرصة بإخرجها من جديد».

تدخل هفال فرزات: «أنساها يا هفال، لا يعلم حتى الجن أين هو كنزك الآن، ربما أهترأ تحت الأرض.»

- كلا يا رفيقي، خبأتها في مكانٍ آمنٍ، و اتذكر مكمنها بالضبط.

(إنها عادتنا منذ سنين، نكتب و نكتب و نكتب كل شيء: أشعار، مذكرات، يوميات، قصص و لكن، و للأسف الشديد، فما أن تَندلِعَ معارك كبيرة او حملة للعدو ضدنا، حتى نشيع جثامين دفاترنا في القبور الضيقة، بين الصخور الخشنة، على أمل العودة إليها فيما بعد، لكن إما أن نستشهد أو ننجرح أو نغيّر المنطقة من أساسها، فيذهب كل شيء أدراج الريح! و تبتلع الأرض كل شيء، فهي لا تشبع.)

- لن أيأس يا رفاق، سوف أخرجها و أرسلها إلى القيادة للنظر في مدى صلاحيتها للنشر.

رد أحد الرفاق بشيء من السخرية و التهكم: و هل هي رواية عظيمة يا رجل؟ هل هي أفضل من (ماميش أوغلو)؟

- لا لا... لقد كتبت عن حياة سنة لفصيلة من الكريلا، عن الوقائع والأحداث التي مرت بهم، العمليات التي قاموا بها، و كذلك استشهاد الرفاق، أو هروب البعض إلى العدو، إنها قصة الشجاعة في مواجهة الجبن و الخيانة.

- عن أي عملية كتبت يا هفال شيار؟

- كتبت فصلا عن عملية (دريه قاجى). بالأضافة إلى الكثير من العمليات التي قامت بها الفصيلة حينها.

- كانت عملية عظيمة يا رفاق...

- و هل شاركت بها يا هفال آفارش؟

- نعم... كانت ثمرة جهود و اجتهادات عظيمة؛ أصابت ضربة في صميم العدو، مرّغت أنفه في الوحل، وجعلته يسحب ذيله الطويل إلى أسفل قوائمه.

- شيار: كانوا يولون الأدبار كالأرانب، مات حوالي تسعين، والكثير منهم قفزوا من على الصخور الناتئة، حيث تهشمت جماجمهم مثل البطيخة الساقطة من قمة (حمدى أوسو)، والذين نجوا من قنابلنا و غضب رشاشاتنا، أستقبلتهم الوهاد السحيقة، فاردة ذراعيها في الهواء «على الرحب و السعى» لتجعلهم عشاءً للثعالب و بنات آوى...

- يا هفال! جن جنونهم، اصاب العديد من جنود العدو بالعقد النفسية، فأضطرت على إثرها قيادة أركان العدو، على أستبدال جلّ قواتهم بقوات أخرى!

- كل الفضل يعود إلى التخطيط الجيد و عمليات الرصد و الاستطلاع المكثفة، والتعاون الفعلي بين السرايا و الفصائل الموجودة في المنطقة و ما حولها.

- كانَ لِهذِهِ العمليّة، دورٌ مُهم في رفع معنويات قواتنا في كل المناطق و الآيالات، فهي تستحق أن نكتب عنها بشكل مكثف.

رأيتُ بأن رفاقي قد غاصوا في حمية استرجاع تلك الأحداث المثيرة، و هذا سيؤخرنا في المهمة، لذا رأيت من الأفضل أن اقطع حبل ذكرياتهم:

- و الآن يا رفاق، أستعدوا للانطلاق صوب الديار الحبيبة و ساكنيها الأحباء.

مع وقت الظهيرة وصلنا إلى نواحي قرية جبلية مَهجورةٍ و مُستباحةٍ أمام وحوش الجبال و أنتهاكات جنود العدو و المرتزقة، كان أهالي القرية و الكثير من القرى المجاورة دعماً و سنداً قويا لنا من نواحي الإستخبارات و الأرزاق، بالإضافَةِ إلى الدعم المعنوي، و الآن باتت مترعا للوحوش الحيوانية و البشرية على حد سواء.

- اقتربنا يا رفاق، يجب أن نسرع الخطى إلى مكان اللقاء و بعدها نتوجه بهم إلى بسطى.

(كانت قدماي تنهبان الأرض نهباً، اشعر و كأنني سأطير أثناء إنحدارنا نحو أطلال القرية الراقدة في أحضان أمها (الأرض) الحانية عليها بلمسة من العذوبة و العذرية البرية. لمحتُ دخانا صاعدا من بيوتات القرية؛ فقلت في نفسي: «يا لهم من قليلي الحذر و عديمي الحيطة، و كأنهم في سياحة على شاطئ البحر! لِمَ يصدرون كل هذا

الدخان؟». كان بالي خاليا إلا من كيفية اللحظة الاولى من اللقاء بالرفاق الذين لم نراهم منذ أمدٍ طويل. كان رفاقي قد بقوا خلفي مسافة خمسين مترا، و أنا أستعجل الوصول إلى الذين ينتظروننا في هذه القرية، ومئات الأفكارُ و المشاعر الجيّاشة تتلاطم و تتوهج كأذيال النار الملتهبة و المتلاعبة تحت رذاذ الغيث المدرار في داخلي.

* * *

ما إن وصلت إلى أول بيت في القرية و كل أملي أن أجد... و فجأةً توقفتُ عن الحركة آلياً، تجمدتُ في مكاني مثل الحجر الأصم، لا أقوى حراكا! العواصف الهوجاء ثارت وبارت كالزوابع الصيفية العاتية في سهول سروج وحران في داخلي.

الدهشة علقت لسانيّ، قطرات باردة من العرق تصببت من كل مسامات مملكة جسمي المتحجر، شلّ الدماغ و العواطف و التفكير جميعا عن العمل و كأنهم في سباتٍ شتوي لا ينتهي! مشاهد غريبة كالبرق الخاطف أرعدت أمام بصري. كان يقف مقابلي تماماً، تفصل بيننا عدة خطوات لا غير. هو أيضا، كان ينظرُ إلي واجماً، جافلاً، يغشيه الذهول و الفزع؛ فربما كان كِلانا يُؤمِنُ برؤية نجوم الظهر، أو طيران الأبقار أو حتى تقلد هتلر للبابوية في الفاتيكان و لم يخطر على بالنا أن نلتقي وجها لوجه، بهذا القرب الشديد و بدون تخطيط و استكشاف مسبقين!

كنتُ أحس بأنفاسه المضطربة تهبُ هبوباً على وجهي من شدة القرب بيننا؛ الحاجز الوحيد كان ثلاث أعواد من القصب الرفيع؛ فاصلٌ وحيد بين النار و البارود، الضياء و العتمة، بين لا و نعم. كان يتفرس فيّ وقد استوعب كلينا الموقف الذي نحن فيه. بدأتُ احسب

كل ثانية، بأجزائها المائة، بأجزائها الألف، بأجزائها الابدية! أدركتُ بأنه ليس لدي أي وقت لتنفيذ أي شيء، و هو، كان ينظر إلي بوجهه الطفولي و رأسه المحلوق. لأول مرة أقع في مثل هذا الوضع المحرج، ظهرت شبه ابتسامة صفراء على وجهه الغض الناعم، حتى خيّل إلي بإن تلك البسمة كانت خليط من السخرية و التأسف، أو هكذا تهيأت لي من تحت ملابسه المموهة و طاقيته العطنة؛ كأنه كان يقول لي: «سلامٌ على العمر الذي مضى و انقضى».

ربما كان محقاً في ذلك، فالمبادرة كانت في يده، أو بالأحرى في فوهة سبطانة رشاشه (MG3) الموجهة إلى صدري المنتفض. أعرف بأنني لا أستطيع أستخدام الرشاش المعلّق على كتفي، نظرتُ ملياً إلى وجه الجندي الواقف مقابلي كالصنم، كل شيء مرّ في مخيلتي بلا انتظام؛ رأيتُ وجه أمي و هي تمسح رأسي بيديها الحنونتين، تذكرتُ رسالتي الأولى و كلامي « لتبكي أمي ولا تبكي كل أمهات الكرد»، كنتُ أنانياً و فظاً في ذلك مع أمي، تذكرتُ المدرسة و مشاكساتنا و جولاتنا الحمقاء أيام المراهقة، و تذكرتها هي، كانت تلوّح لي و أنا أغادر سريعاً... لا أعرف، كان وجه الجندي يدل على دلال و سذاجة المدينة، كان طفلاً ضخماً ليس إلا. كنتُ أدعو في سريّ بأن لا يصل الرفاق، كي لا يقعوا في الفخ الذي وقعتُ به أنا. تذكرتُ أمي و هي تدعو عليّ « لتتفجر جمجمتك تحت الدواليب، ليضربك الله بمدفعه».

كنتُ أبحث عن ثغرة، و لو بحجم خرم الأبرة، كي أتمكن الخلاص من هذه المصيبة العويصة. في تلك اللحظة سمعتُ خشخشة قادمة خلف الجندي، كانوا من القروجية المرتزقة، عندما لمحوني أرتسمت علامات سخرية ذئبية على وجوههم الكريهة، حيث برزت أسنانهم السوداء الكريهة، و كأن البول يتقطر من شواربهم و لحاهم:

- أقتله! سوف نجعله مثل البطاطا المهروسة! (و راحوا يكيلون بذيئ الكلام الشتائم القبيحة). في نفس اللحظة لمحتُ سبابة الجندي على الزناد.

- « كلا لن أموت بهذه السهولة، لن أموت أيها الأوغاد! فأنا هنا و سأبقى هنا، مع جبالي و أرضي، أداعب أمواج أنهاري، سأكون شجرة دلب(جنار) عريقة أحرس الينابيع... من أجل كل هؤلاء لن أموت! رغماً عنكم أيها الأقذار». كنتُ أبحث عن ثغرة واحدة فقط كي أنفذ من الموت المحتم. المسافة الزمنية بين خروج الطلقة من السبطانة و وصولها إليّ قليلة جداً و لا يمكن النفاذ منها إلا بإعجوبة من الأعاجيب.

دار الزمن دورته العجلى و أنا اشعر بالإنفلاق في كل كياني. و... وضغط الجندي على الزناد وأنا جاهز لاستقبل صوتاً مريراً وقبيحاً، تكورت عضلاتي و الدماء تجمعت في صدري لتتلقى الطلقة التي ستخترق قلبي الصغير، المليء بالحب و الشِعر و الأسماء العزيزة، القلب الذي انهكني بمغامراته، القلب الذي سيُخترق بعد هنيّة و تضع الخاتمة لكل الطموحات و الرسائل الملائكية المدونة. بعد قليل يتفلق هذا القلب و يبرد إلى الأبد نيرانه المجوسية. ضغط الجندي على الزناد و أنا انتظر زعيق سلاحه و خروج الطلقة الساخنة... انتظرتُ و انتظرت، لكن الطلقة الاولى كانت ترفض الخروج من الفوهة العقيمة؛ كانت طلقة معطوبة و لم تنفجر صاعقتها، أحدث الرشاش فسة خجولة! كانَت عيناهُ مُغلقتان عندما ضغط على الزناد؛ استفاق و حاول إستدراك الموقف... لكنني كنتُ الأسرع. بكل ما أوتيت من قوة قفزتُ من على صخرة عالية نحو الوادي، أرتطمت بالأرض القاسية،

أحسستُ بعظامي قد باتت ككتلة من العجين المخمر، آه. رغم ذلك، و خلال ثواني قليلة كنت أجري كالريح، كفرسٍ أصيل مطلق العنان في سهوب حران، غير مبالٍ بالأشواك و الحجارة، و بالطلقات المنهمرة كالمدرار علي من كل حدبٍ و صوب، ورشقاتٌ ترتطم بالصخور و التراب فتثير الغبار و زعيق مزعجين من حوليّ. لم أكن أفكر بشيء، كانت صدريتي قد أنفتحت بفعل الريح والسرعة التي كنت أجري بها نحو الوادي، و الرصاصات تلاحقني خطوة بخطوة و اخترقت عدة رصاصات ملابسي الممتلئة بالهواء.

ما إن وصلتُ إلى الوادي حتى أتجهت صيلات الرصاص نحو جنود العدو والقروجية المرتزقة، كان رفاقي قد بدؤوا بالهجوم كي يخففوا الضغط علي، بفضل ذلك تمكنتُ من الخلاص جزئياً. هناك لمحت البعض يؤشرون إلي من بين الدغل الكثيف، المفضي إلى الغابة العتيقة: «آه أنهم رفاقنا الذين أتينا من أجلهم لأخذهم إلى بسطى»، قلتها في نفسي و أسرعتُ نحوهم.

- هفال تعال إلى هنا يا هفال، هيا، هيا بسرعة.

- أهلاً بك يا هفال، هل أصبت بجروح؟ «عندها فقط تذكرتُ الألم الواخز في جانبي الأيسر».

- لا، لا، أنا بخير، كيف حالكم؟ هل وقعتم في الكمين؟

- كلا، اكتَشَفنا قُدومَهُم و أخذنا احتياطنا، و ابتعدنا عن بيوت القرية.

اقتربت رفيقة مهمومة منيّ، و قالت: « نحن السبب فيما حصل لكم يا هفال، إننا آسفون جداً، فقد جلبنا لكم المشاكل والأخطار».

- لا يا هفالة، لا تقولي هذا الكلام، أنه أمر عادي جداً. هل يوجد لديكم تبغ و ورق سجائر؟ اعتقد بأنني فقدتُ كيس التبغ أثناء سقوطي؛ مع العلم بأنني لا أدخن.

في تلك الأثناء بدأ هدير حوامات (كوبرا) بالزعيق في الارجاء، مطلقة نيرانها عشوائياً بهدف دفعنا للتحرك من مكامننا الآمنة لِنُصبحَ لُقمةً سائِغةً لنيرانها و قذائفها الهمجية. رفاقنا مُستَمِرّون بالاشتباك مع العدو لإشغاله وإلهائه، ريثما نجد مخرجاً من هذا الوادي الواقع تحت حاكمية العدو.

- أرجوكم يا رفاق، أخبروا الرفاق بأن يتوقفوا و ينسحبوا حالاً، الأمر خطير جداً و سوف تكتشف الحوامات مكامنهم! (كنت أعرف رفاقي جيداً، فهم لا يتوانون عن المخاطرة بحياتهم من أجل أنقاذنا من الحصار؛ كنتُ قلقاً عليهم، و أدعو أن لا يعرضوا أنفسهم للتهلكة).

- لا نستطيع أن نتكلم معهم باللاسلكي؛ هذا خطير جداً عليهم! سَتَكتشِفُ أجهزَةُ العدو مكانهم بالضبط. سنحاول إرسال مجموعة من رفاقنا ليخترقوا الحصار... (في تلك اللحظة حدث صفير مزعج، أعقبه صوت أنفجار بجانبنا، ارتفع عمود من الدخان والتراب إلى قبة السماء، وأمطرت علينا رشقات من الحجارة و الشظايا، التصق معظمنا بالأرض، واضعين حقائبهم فوق روؤسهم).

- اللعنة، ربما أكتشفوا مكاننا... الأوغاد.

جاءت أحدى الرفيقات (قائدة فصيلة) و خاطبتني قائلة: «يجب أن نخرج فوراً من هذا المكان، يبدو بأنهم اكتشفوا مكاننا، و عدد من الجنود يتجهون نحونا، يجب أن ننتشر فوراً في المنطقة...»

كان الهدير مستمراً بلا توقف، و كذلك صوت القنابل و قذائف الهاون، كان يتوضح من الصوت بأن رِفاقُنا مُستَمِرّون في المقاومة لإرباك العدو و جعله ينتشر و يشتت قواته في المنطقة.

نقلني الرفاق إلى مكان آمن ريثما تنتهي المصادمات؛ بالأحرى أجبروني على ذلك، قائلين: « هفال! يجب أن تعتنِ بنفسك، فأنت جريح و يجب أن تكون في أمان.»

إنه لأمرٌ مزعج، عندما يكون رفاقك في صراع الحياة و الموت و أنت تمكث تحت صخرة، يقتلك القلق عليهم، ترجو ألا يُصابوا بأي أذى، و تبتهل للسماء أن تنتهي الأمور على خير ما يرام. «يا إلهي متى ستغرب هذه الشمس، كارة أذيال طرحتها الذهبية ورائها خلف الأفق الغائم، عندها سنكون في أمان، فنحن نستخدم الظلام خير استخدام والعدو يعرف ذلك جيداً، لذلك فهو يهرب من الإصطدام معنا ليلاً». كنتُ أستعجل الشمس في الغروب:

(أيتها الشمس الساطعة منذ الأبد على هذه الأرض المتبركة بنورك الإلهي، نورك الذي أصبح مرآة لنفوس العشاق و الطيبين، كنتِ إلهاماً للرسل و الأنبياء، كرماً منكِ هلا أسرعتِ الخطى في رحيلك الذي لا بدّ منه، رفاقيّ في صراعٍ مرير من أجل حياتنا أجمعين، رحمة بنا أيتها الشمس المباركة، ليس من أجلنا فقط، إنما من أجل تلك الأم التي تنتظر أبنها الغائب خلف الجبال).

قصتي لم تنتهي بعد، لكن الزمن أوقفها بلا إنذار مسبق، ربما يعود الزمن ضارباً بهذا القرار عرض الحائط، فتتحطم الجرة التي تحتوي على هدايانا و العابنا الطفولية المخبأة في جرار الزمن و أرواحنا الواجفة خلف سحابات الجبل المقدس، و انتظار الصخور لتصبح ثَلجاً ذائِباً يروي عطشنا.

فأنا الباحث مذ أن سقطتُ من حواء، عن جرعة ماءٍ أروي بها ظمأ السنين، لا أريد سراباً مخادعاً، فلن اخدع روحي العاكف في محراب آلهة الحب و الحياة و كل شيء.

فأنا عرفتُ بأن أوج كل قمة يكون عكسها !!

الفهرس

سوف تنتصرين 7

صرخة الماضي 9

انتصارُ الضَّمير 17

آه ياصغيرتي 21

الباحِثُ عن الحقيقة 33

الحلم 39

دوغان 67

كَميُن - لَيلةِ – القَدر 71

قلبي النابض 79

لحظات لا تنسى 115

أسيرٌ يهوى حياة الكريلا 131

نحو القمة 137